مذكرات ابن الباشا

ابن اطاسونية

رواية

رياض القاضي

الكتاب: مذكرات ابن الباشا (ابن الماسونية)
المؤلف: رياض القاضي
التصنيف: رواية
الإخراج الفنى: سالى شاهين
تصميم الغلاف: عصام أمين
الترقيم الدولى: ٩٧٨٠٣٥٩٣١٥٤٣٧

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف ولا يجوز إقتباس أو إعادة نشــر أو طبع محتوي أي جزء من هذا الكتاب بأي صورة من الصور أو إســتغلاله مرئياً أو سمعياً بأى صورة من الصور بــدون موافقة كتابية مختومة من المؤلف ومن يخالف ذلك يُعرض نفسه للمساءلة القانونية

هذا الكتاب برعاية

مؤسسة Iraqibbc الإخبارية بإنجلترا – لندن

8 windsor road London Nw2 5ds

الدولة لا يمكن أن تدار بالرحمة

السلطان العثماني
عبد الحميد الثاني

السيطرة على الملك، أفضل من الجلوس على العرش

حكمة آل روتشليد

(1)
البـدايــة

لم أكن أتصور يومًا بأني سـأتجرأ هكذا لكتابة مذكراتي والتي ربمـا سـتؤول إلى حتفي من قِبـل رجال لا يعرفـون الرحمة، فبالرغـم مـن أني رجـل مخضرم قد تجـاوزت السـبعين من العمـر، إلا أنني شـهدت موت الملـوك الثلاث، بدايـةً من حُكم "الملـك فيصـل الأول" وابنه الملك غازي، وأخـيرًا حفيده "الملك فيصل الثاني".

ولعل أكثر المشـاهد وحشـية والتي شـاهدتها في حياتي، كانت مقتل أفراد العائلة الحاكمة كلها دون رحمة على أيدي عراقيين ماسـونيين يدّعـون القوميـة والحرّيـة.. نعم ماسـونيون.. جلبتهم بريطانيا لأسباب تخدم هذه المنظمة الإرهابية، فكالت للمملكـة حقدًا كبـيرًا، حتى هروب وريثـة العرش الأخيرة إلى مـكان مجهول أثناء مداهمة قصر الرحـاب، كانت إهانة كبيرة وهي تجتر ألم مقتل عائلتها، فلم نعلم أين استقر بها الدهر إلا بعد فترة وجيزة من الانقلاب الجمهوري المشئوم.

أجلس الآن في الشاليه الخاص بوالدي، محل إقامته الصيفية قبل وفاته، ويقع في إحدى المناطق الترفيهية التي اعتاد والدي ارتيادها فيما مضي مع والدتي.. في شمال العراق الحبيب؛ فالشعب الكردي شعب رائع ورجال يُعتمد عليهم في أيام الشدّة، جربتهم فكانوا نِعم الأخلاق في نُصرة الدخيل.

الشيخ "عمر" كردي الأصل يجيد العربية ويتكلمها بلهجته البسيطة، استقبلني أعظم استقبال، ليس فقط لأني كنت يومًا "ابن الباشا"، ولكن لمّا كنت وقتها – أيام العزّ - أخدمه كثيرًا وأنجز له العديد من الأعمال المتعسّرة عليه في الدوائر الحكومية.. وكنتُ أحلّها له باتصال تليفوني واحد.

تأثرت بشخصين في حياتي الشخصيّة: والدي و "سوسن خانم".. فقد كان والدي ذو شخصية قوية وقاس، له نفوذ عظيم في الدولة، وكان مُقرّبا جدًّا من الملك فيصل الأول.

أمّا بالنسبة لصديقتي الجميلة "سوسن خانم" المرأة الأربعينية، فقد رافقتني في كل مراحل حياتي، وساعدتني كثيرًا أيام النكبات التي واجهتها في فترة شبابي.

أتذكر الأيام السوداء في لندن عند زواجي من امرأة لبنانية غدرت بي بعد سنة من الزواج، حيثُ رجعتْ إلى حُضن

عشيقها الزنجي بعد أن طردتني من البيت فجأة، ولم تفتح لي الباب أثناء عودتي من الخارج، ولم أجد ملجأ يؤويني من غدر الزمان في تلك الفترة القاسية إلا "سوسن" التي صارت مع مرور الزمن عشيقة وخليلة.. وسأذكر هذه الحادثة فيما بعد.

"سوسن" سيدة أعمال عراقية كان لها دور مهم في تغيير حياتي.. فبالرغم من أنني فقدت الثقة في النساء.. ولكنها كانت الشخص الحنون التي أرجعت لي ثقتي في الحياة، نحن عاشقان منذ فترة طويلة جئنا معًا إلى هذا المصيف الرائع، إلى الشاليه الخاص بي، بعدما استولت أختي الكبرى على ممتلكاتي الخاصة، بمساعدة زوجها الذي يصغرها بعشر سنوات، والذي احتال على العديد من رجال الأعمال والدولة، زوجها الثامن، كادت أن تستقر عليه لولا أنه قد تم اغتياله من قِبل أعضاء الجمعية السرية في بغداد التي كانت تعجّ وتضج بالجواسيس اليهود وغير اليهود في تلك الفترة.

جئت أنا وعشيقتي لنخلو معًا بعيدًا عن هذا العالم الذي لا يرحم، والمليء بالخيانات والثورات المزيفة والقتل والعَمالة على حساب الناس الأبرياء، لم نتزوج، إيمانًا مِنّا بأن الزواج

مشـروع فاشـل لا يدوم، بل يُزيـل الاحترام والحُـب بعد فترة من الـزواج، ويزيد الملل بـين الزوجين، "هذه كانـت قناعتنا الشخصية".

هـذا الصفاء، والنقاء، والتورد، هنا في هـذا المصيف البعيد عن بغـداد حيث الصمـت المفعم بالمحبـة، أنا وعشـيقتي، وثالثنا الشـيطان كمـا يُقال، تلك المحبة التي مـن الصعب أن تولد بين الزوج وزوجته في هذه الأيام الغابرة، كل شـيء في الشـاليه كما هو، فالأخ "عمر" كان أمينًا على الشاليه.. وحافظ على نظافته طـوال فترة غيابنـا، يحافظ على كل ممتلكاتنـا بعناية فائقة وكأنهـا جديـدة.. بالرغم مـن أنّ الديكـور كان يتغير بأحدث طـراز أوروبي، إلا ذلك السـرير الـذي يصدر صريـرًا عتيقًا، وكنت على وشك تغييرهُ رغم فخامته، لولا أنه يذِّكرني بالأيام الخوالـي، أيام الحفـلات ونزوات الباشـاوات، فكلما كنت انتهي من صـرف الضيوف، تبقى معي المطربة "هيـام"، والتي قُتلت فيما بعد على يد أحد السياسيين المنفذين أيام الملك "غازي".. حيث وجِدتْ مقتولة في سيارتها المرسيدس مع سائقها في أحد أحياء بغداد.

والدي "الباشـا" ماسوني درجة أولى، قبل وفاته كان يهتم جدًّا بتغير مسـار الوضـع في الدولة عن طريق أصابـع خفيّة تدير المؤامـرات لإنهاء الملكية في العراق بسـبب تطلعات الملك فيصل إلى بناء عراق قوي.

وكان والدي ذا ذوق رفيع المسـتوى ويهتم جدًّا بمظهره.. كان يقف أمام المرآة ليلقي نظرة سـريعة يطمئن بها على هندامه، حـذاؤه لامـع، البابيون مسـتقر في مكانه، يتأكد بـأن قيافته لا عيـب فيهـا، يخرج فيكون السـائق في انتظـاره يُحييه تحية الصباح قبل أن يُسرع ويفتح له باب السيارة الخلفية بابتسامة رضا وإعجاب يرسمهما على وجهه دائمًا.

والدي يعشق النبيذ كثيرًا، وكان ذا نفوذ عظيم في القصر، كما كان صاحب القرارات الحاسمة في البلاط الملكي، فعلاقته بالملك فيصـل الأول تتعـدى وظيفته بكثير، شـهد ولادة ابنه غازي، وحمل جسـده وهو رضيع بيديه، وراقب بفرح حَبْوه وترنح خطواته الأولى، وبدايات نطقه المبتسر للحروف..

كان "الباشـا"، والدي، ضخمًا بغير ترهل، أسمر وسـيمًا، وأنيقًا، كنت أراه وهو يرتدي بدلة شـار كسـتين البيضاء هفهافة، مع قميـص أبيض ياقته منشـاة، مع رابطة عنق سـوداء عقدتها

مثلثة صغيرة مع حذاء إنجليزي لونه أبيض وأسود، فيخرج بصحبة والدتي إلى أحد الأندية الليلية لقضاء سهرة ممتعة بعد أسبوع عمل شاق، حيثُ كانا يتركاني مع مديرة المنزل التي تدير أمور المنزل وتراقب الخدم بكل حزم.

والدي ماسوني، وأنا أعترف بذلك، التقى عدة مرات بالصنم اليهودي "مصطفى كمال أتاتورك" في لندن، سواء بموعد أو صُدفة.. عندما كان الأخير عضوا في حزب الاتحاد والترقي، التقيا في لندن حيث كان والدي يعلم بأن هذا الرجل له طموحات جدّية ويهدف إلى هدم ونخر الخلافة الإسلامية آنذاك، والتي بدأت تتآكل وينخرها الفساد في أواخر المأتي سنة من عمر الإمبراطورية.. وكان أتاتورك وقتها يسعى بحزم لعزل آخر الخلفاء المسلمين بسبب ضعفه.. ويلغي الخلافة العثمانية إلى الأبد ليُنفذ بذلك مخططات الأعداء الذين عملوا على التخلص من الرجل المريض، والتغلغل في الوطن العربي، ودقّ أول مسمار في نعش الدولة الفلسطينية، ولا أشك في وعد الله بأنها ستعود إلينا شامخة إن شاء الله..

والدي "الباشا" كان مُقرَّبًا من الإنجليز.. وكان ذلك سببًا في

زرعه في القصر الملكي وتقريبه من العائلة الحاكمة، قبل أن يتم اغتياله بطريقة بشعة لا تليق بسنه الكبير على أيدي مجهولين.

★★★

أتذكر حتى الآن كيف تم التآمر على الملك "فيصل الثاني"، فكانت أول أسباب إسقاط النظام الملكي في العراق 14 تموز 1958م بسبب محاولته للخروج من نطاق السيطرة البريطانية وعقد تحالفات قوية جديدة مع دول أخرى، حيث ظلَّ العراق مُكبّلاً بالهيمنة البريطانية لعدة عقود، ولم يفلح استقلال البلاد، عام 1932م، في إخراجه من هذه الهيمنة، وللخروج من هذا الوضع، فكّر الملك الجديد الشاب "فيصل الثاني"، وبدعم من خاله عبد الإله ورجل الدولة القوي نوري السعيد، بالتوجه إلى الولايات المتحدة، بصفتها القطب الدولي الذي يلوح مستقبل الهيمنة على العالم إليه، وحاول كسب صداقتها، وعقد الاتفاقات، وعندما اطلع جلالة الملك على معالم التطور والتقدم والتحضر التي كانت سائدة في أمريكا، قال حينها قولته المشهورة: "سأسعى بكل قوتي لجعل بلدي ووطني يمثل ما وصلتم إليه من تقدم وتطور".

لم يرق لبريطانيا هذا التوجه، وبدأت تتآمر عليه وتخطط للتخلص من هذا النظام ومن رموزه الثلاثة الكبار " فيصل، عبد الإله، نوري السعيد".

★★★

لقد طالب نوري السعيد بضم الكويت إلى الاتحاد الهاشمي، وكانت هذه من الأسباب القوية في إسقاط النظام الملكي في العراق، حيث كان نوري السعيد رئيس الاتحاد الهاشمي آنذاك، وكانت الكويت تحت الحماية البريطانية، وكانت مازالت حينها جزءًا من العراق، وأن بريطانيا، وبعد أن احتلت كل سواحل الخليج العربي منذ نهاية القرن الثامن عشر، فصلتها عن الدولة العثمانية، وأن نوري السعيد كان يعلم بأنه ليس من العملي أن يطالب بالكويت كجزء من العراق، ففكر بأن يلتف على هذا الموضوع ويضمها كدولة ثالثة للاتحاد العربي، كان هذا تفكيرًا ذكيًا منه، لكنه لم يدرك بأن هذه المهمة ستقوده إلى حتفه، لم يعجب بريطانيا هذا الوضع، كما لم يعجبها انبثاق الاتحاد الهاشمي من الأساس، مما أضاف عاملاً جديدًا للتفكير في التخلص من الحكم الملكي ورجاله بالعراق.

كان والدي ناقمًا على الملكية، عندما قامت المملكة العراقية

في بداية عهدها، وكانت صلته بالماسونية قوية، حتى أنه كان مستعدًا أن يبيع كل شيء في سبيل أن يبلغ أعلى المراتب في الجمعية الماسونية، ولكنهم تخلصوا منه، بعد أن أخذوا منه كل ما أرادوه، ثم أردوه قتيلاً.. فوجدوا جثته في صبيحة أحد الأيام في إحدى مزابل بغداد ممزقًا شر تمزيق.. ولكنهم سُرعان ما أدركوا، بالصدفة، بأنّ هناك ملفات سرّية لدى أبي يجب استعادتها وحاولوا بشتّى الطرق وفشلوا.

أنا أعرفهم جيدًا، وأعلم أنّ لديهم أيادي خفيّة مع آل روتشيلد للسيطرة على العالم، وأعلم بأن هناك وثائق سرّية مهمة في خزائن اليهود تثبت تغلغلهم في كل شيء.. يخلقون علماء وفنانين وسياسيين.. ثمّ يجعلون الشعوب تقدّس كلّ هؤلاء وتدمجهم في مجتمعنا ليكونوا شطرًا مهمًا من التراث العربي وتاريخه، ومن ثمّ نخلدهم بتماثيل وكتب، واطلعتُ على نُسخ كانت في خزانة والدي من دون علمه، تعود تاريخها بين "1733 – 1923 م"، تُظهر في محتواها ألاعيب الماسونيين على مرّ السنين، وأيضًا كيف تكتموا على أسرار غرق الباخرة "تيتانيك" في رحلتها الأولى من إنجلترا إلى الولايات المتحدة في عام 1912م، لحماية الماسونيين من أخطارِ كشفهم وإبادتهم، وكيف

كتموا اسـم القاتل الحقيقي الذي عُرف باسم "جاك المُمزق " في العصر الفيكتوري لأن القاتل الحقيقي كان ماسونيًا.

بقـي والدي حتى يـوم مقتله يعتلي سُـلّم الترقية الماسـونية درجة بعد درجة، حتى اقترب من مرتبة اسمها "قادش"، وكان يحضـر برفقة والـدتي أغلـب المحـافل الماسـونية وهنـاك التقـى بـ "مصطفى كمال أتاتـورك".. ليغيّرا مجرى التاريخ الأسـود الذي نعاني منه إلى الآن.

★★★

(2)
بغداد 1939م

في صباح بارد عاصف.. كان هناك حضور سام وضيافة عالية المقام، حيث ساد نشاط غير اعتيادي في أجواءِ القصر، علمتُ بعدها أنه المبعوث البريطاني، جاء من لندن لبحث بعض القضايا مع الملك "غازي"، ومن ثمّ حلّ ضيفًا في قصرنا لعدة ساعات..

كان مُحاطًا بحراسة مشدّدة، المسدسات في خاصرتهم كانت تومض في نور الشمس الشاحب، كانوا ذو أجسام ضخمة بزي مدني، ترجلوا من سياراتهم الفاخرة، يعلو القسوة والعبوس وجوههم، كانت حديقة قصرنا الغنية بالنباتات النادرة يتوسطها طريق صاعد إلى باب القصر.. أمّا الدرجات السلمية العريضة فقد بسطها الفرّاشون بِسجّاد أحمر عريض، اصطفت على جوانبها الأشجار، رجال البوليس البريطاني انتشروا في كل مكان، ومن ورائهم ذئاب حرس القصر يطوفون في زواياه الواسعة منعًا لأي محاولة قد تطول حياة الضيف، كان الأخير

يتأمل البناء الأسطوري لقصرنا والمشيّد على الطراز الهندوسي، وقد بهره رونق التماثيل الضخمة بجبين ازداد عبوسًا.

والـدي كان مغتبطًـا باسـتقبالهم ورحَّب بهم أحـرّ ترحيب، عندمـا جاء الزائـر إلى قصرنا كزيـارة ودّية في شـكلها، ولكن المضمـون كان أكـبر من زيـارة عاديـة.. زيارة تهـدف إلى إنهاء شـخصيات يجب أن تُزال من السـاحة السياسية العراقية بأمر من بريطانيا.

دخـلا المكتـب، وكان الضيـف يتأمـل المـكان الواسـع الأنيـق وأرضيـات الرخام والمرمر، ولفت انتباهـه تماثيل من الذهب والبلاتـين والعـاج مرصوصـة في أماكـن مختلفة مـن المكتب، بالإضافـة إلى لوحات المشـاهير من الرسـامين، جلـس الضيف على الكرسي في يمين المكتب أولًا، ثمّ جلس والدي خلف المكتب كالعـادة، وكانت السـعادة ظاهـرة على ملامحـه، أخذ الضيف نفسًـا عميقًا ثم بدأت أنامل يساره تعبث بشاربه الأنيق، وكان يرنو بنظره إلى المكتب الواسع مرات ومرات، كانت المهابة تحف بالضيـف، ويتضوع منه عـرف طيب، طويـل القامة عريض المنكبين ضخم الجسـم، وكان شـعره الأبيض المنبسـط مفرقًا على صفحتي رأسـه في عناية بالغة، وخاتمه الذهبي، ذو الفص

الماسي الكبير، وساعته الذهبية، كلها تؤكد رفاهة ذوقه، أمّا وجهه فمستطيل الهيئة مكتنز الأديم قوي التعبير واضح الملامح، يدّل في جملته على بروز الشخصية والجمال بعينيه الزرقاوين الواسعتين، وأنفه الكبير الأشم المتناسق على كبره مع بسطة الوجه، وفمه الواسع بشفتيه الممتلئتين، وشاربه الغليظ المفتول طرفاه بدقة لا مزيد عليها، ولّما فرغ الخادم من تقديم القهوة إلى الضيف وسيده.. خرج بهدوء.. فبادر الضيف بالكلام قائلًا بعد أن ارتشف قليلًا من القهوة:

-كلّ شيء يسير كما نريد.

- سيدي مستر "بتلر" لقد اقتربت ساعة الصفر لتصفيته.. زيارته الأخيرة إلى ألمانيا أثبتت عداءه للمملكة المتحدة، وسبب إهداء ألمانيا إذاعة إلى الملك هو بمثابة إعلان الحرب علينا وإفشال خطة فصل الكويت عن العراق.. لقد كنا نعمل جاهدين على طرد العثمانيين من العراق، ولكن هذا الملك يُخطط لأشياء خطيرة جدًّا.. أخشى أن يُعيد زمن السلطان "عبد الحميد الثاني"، ويكون الخليفة القادم للعرب.

- لقد أصبح واضحًا للجميع أن الملك "غازي"يجب أن يُسيطر عليه.. أو أن يُخلع، وقد لمّحتُ له ذلك، وأخبرت الأمير عبد الإله

بأن بريطانيا لن تسمح للملك باستعادة الكويت، وبصفتي وكيل وزير خارجية بريطانيا الدائم فقد قدّمتُ شكوى عنيفة من جرّاء تصرفات الملك "غازي" الذي يلعب بالنار وستُحرق أصابعه، أعدكَ بأنّ القضاء عليه بات قريبًا.

- قبل فترة وأثناء زيارة "نوري السعيد" إلى لندن للبحث بشأن موضوع الكويت والعراق، استغل الملك غياب الأخير وأبلغ "ناجي شوكت" بقرار اقتحامه للكويت بحضور وزير الدفاع ووكيل رئيس أركان الجيش، وبحضوري بصفتي كرئيس الديوان الملكي، لم نبدى رأي، ولكن "ناجي شوكت" نصحه بالتريث لأن العملية سوف تثير الزوابع.. أي أننا سنصطدم مع بريطانيا ودول عربية بالإضافة إلى إيران.

- سيدي الكريم، سبب مجيئي إلى هنا هو إنهاء حكمه، وهذا هو دورك الآن، سَنمليه عليك وستؤديه بإخلاصك المعروف لدينا، فالكل يريد زواله، لا نريد متاعب أخرى، لإزالة الدولة العثمانية استنزفنا الكثير.. ولا نريد دولة أخرى تهدد تواجدنا في المنطقة.

- أنا تحت أمركم.. فلا أبتغي سوى رضاكم.

- حسب اطلاعاتنا فإن جلالته يقوم بجولات تفقدية، وغالبًا

دون حراسة، ومرافقه هو الخادم وعدد بسيط من الحراس لا يتعدون أصابع اليد، ولكن هناك أوقاتًا خاصّة ما يكون وحده ومعه الخادم فقط عندما يخرج للتنزه، وعلينا أن نستغل كل ثغرة من أجل إيقاعه في الفخ.. ومن أجل تدبير خطة موته وإبعاد الشبهة عنّا، سنوهم الجميع بأنه مات نتيجة حادث سيارة مفاجئة، السير "موريس بيتر سون" قد تلقى الإشارة من الحكومة بإنهاء الأمر بسرعة واختيار ملك جديد يؤدي الدور المطلوب منا وبلا متاعب.. عليك أن تُملي ما يجب فعله على الخادم بعدما أغادر بغداد إلى بريطانيا.

- إذن "عبد سعيد" هو من سيكون المنفذ للعملية؟

- ستنفذ العملية على أنها حادث سير.. أريد منك أن تتخلص من الخادم والسائق معًا في المكان الذي سيلجآن إليه مباشرة بعد أن تؤمن لهما طريق اللجوء إلى مخبئهما السرّي خارج بغداد.

لاح الاطمئنان على وجه أبي، فقد تحقق له ما يريد، لم يكن طموحه سوى شيء واحد وهو كيف يدمر العائلة المالكة ويطيح بالعرش إلى الأبد، لفّهَمْ الصمت للحظات وانتظر والدي الضيف أن يكمل شرب قهوته بهدوء.. ثم مال بجذعه فوق مكتبه ومد يده حتى التقت بيد الضيف الجالس على الكرسي

على يمينه متمتمًا:

-سعادتي لا توصف لهذه المهمة مستر "بتلر".

وسحب يده ليعود إلى مجلسه على الكرسي، وقد لاحت السعادة على وجهه، ثم اعتمد يديه على ركبتيه قائلًا:

-لن أدع أحدًا منهم يعيش طالما كنت على قيد الحياة.

- سأغادر بغداد غدًا صباحًا، نفذ الخطة بعد مغادرتي فورًا، وفي أقرب وقت مناسب، سيكون خطرًا علينا بقاؤه على العرش.. لأنه يعتبر النفوذ البريطاني عقبة لبناء دولته الفتية، ويعتبرنا المسئولين عن نهب ثروات العراق النفطية والأثرية، ولذلك فإنه إن تحالف مع هتلر فستكون نهاية مأساوية محققة لطموحاتنا على هذه الأراضي العربية، أريد أن يتم التخلص أيضًا من الضباط والساسة الذين تم تقريبهم من البلاط الملكي، أمّا معالي رشيد عالي الكيلاني باشا" فستكون له نهاية تليق به. "

- صدّقني "مستر بتلر" هذا الرجل أخطر من مئة رجل، له نظرة خارقة في بناء مستقبل البلد وإن سار على ما هو عليه فسنواجه بعد سنين عرقًا آخر وشعبًا آخر أقوى مما نتوقع.

- عندما قضينا على الإمبراطورية العثمانية أنهينا أهم مانع

لقيـام أهدافنا في الشـرق الأوسـط، العثمانيـون كانوا الأخطر في المنطقـة، فقد حموا العالم الإسـلامي من تدخـل أوروبا في البلـدان الإسـلامية، وبفضـل رجالنا من العـرب قضينا على الخلافة الأشـد خطورة طيلة فترة 600 عام من الحُكم، والآن ليس هناك من مانع لقيام دولة يهودية في فلسـطين.. فبوابة الشـرق الأوسـط بلا حماية الآن.. ولكن علينا أولًا أن نسـيطر سـيطرة تامـة علـى كل المحاولات الـتي تدعـو إلى التحرر من الاسـتعمار كما يدّعون.. وزرع العملاء من العرب بين صفوف الشعب لضمان وجودنا على السـاحة العربية.. ولتقويض أية عملية تهدف إلى الوقوف ضدّ مصالح الإمبراطورية العظمى.

كانت هذه الجلسـة أهم حدث في حياة والدي، والتي سـجلها في مذكراته والتي لم تنشـر بسـبب اغتياله، حيـث أفنى حياته لتحقيـق أهدافـه وأهـداف المنظمة علـى أرض لم يحبها يومًا، رغـم أنه ولد علي هـذه الأرض،ولكنـه تعلم أثناء سـفره إلي أوروبـا الخيانة وحياكة الدسـائس للآخرين، خطط ليل نهار لكـي تتم عملية اغتيال الملك بنجاح، وأمّنّ الظروف المناسـبة من أجل تسـهيل قيام الخادم وسـائقه باغتيـال الملك "غازي"، ولكن للأسـف لم يُدرك والدي بأن هذه آخر عملية سـيديرها

مـن مكتبـه.. فقد تم توقيفـه عن العمل لفـترة طويلة حتى أنهكه المرض والتعب، ولكن بالرغم من ذلك لم يتركوا له راحة الموت.. فبعد 14 عامًا من اغتيال الملك، وجدت الشـرطة جثة والدي ملقـاة في المزبلة وهو عارٍ، يـأكل وجهه الذباب.. ممزق شرّ تمزيق.. فقررت المنظمة إيجاد وجوه شابة جديرة بالثقة لتنفيذ مخططاتهم.. فكان الاختبار، والاختيار القادم هو"أنا".

★★★

في الرابع من نيسـان 1939م سمع الناس نبأ اصطدام سـيارة الملك "غازي" بجذع شـجرة، وقد شجّ الجذع الواقع عليه رأسه، أسـرعت زوجتـه حـال تلقيها الخـبر إلى مكان الحادث وسـط الظـلام، ورأت زوجهـا مسـجّى والـدم ينزف منـه، لم تتحمل تلـك الفاجعـة فانكبت عليه وأخذت تصـرخ في الحرس لجلب الطبيـب، كان قلبه ما يزال يخفق حينهـا والجميع من حولها مرتبكون، أمسـكت بالجرح وضغطت عليه بكل شـيء يقع في يدها، كان كلّ شـيء يدل على أن الأمل مفقود بأن يعيش أكثر من ذلك، إلا أن دقات قلبه أعطت لزوجته أملاً في إسعافه..

بعـد نقله إلى القصر الملكي تم اسـتدعاء الدكتور "سندرسـن" الذي حـاول إنقاذ حياة الملك، ولكـن بالرغم من كل المحاولات إلا أن الملك أسلم الروح..

(3)
بعد 6 أشهر من مقتل والدي 1953م

سـهت عيناي قليلًا، ولكنني لم أسـتطع النوم، كان الظلام قد حلّ بشـكل كامل عندما سمعت صوت خطوات أختي وزوجها الجديد على درجات السُـلّم، قادمين من السـهرة، كان ترتيب زواجهـا هو السـابع، عاطل عن العمل يعيش مـن أموال أختي التي تكبره بخمس عشـرة عامًـا، لم أحبه ولم يحبني، دخلا إلى الغرفـة، ثملين، ثم انقطع فجأة صوت الضحك، وسـاد الصمت والهدوء من جديد.

لم أسـتطع النوم من أثـر الجلبة التي أحدثاهـا أثناء دخولهما القصر، فقررت النزول إلى حديقة القصر لأتنفس الهواء النقي، لا تـزال ذكـرى مقتل والدي تعيش بداخلـي، فلم يعد القصر محاطًا بهيبته وحراسته كما كان في عهد والدي "الباشا"، وبعد رحيلـه صدر قـرار وزاري بتعييني موظفًا صغـيرًا في القصر الملكـي كعقوبـة لا أعرف سـببها، ولم أعد رجـلًا ذا أهمية كما كنتُ قبل مقتل والدي..إذ تم تهميشي بشكل مفاجئ من قبل

جهات أقوى من الحكومة العراقية نفسها، وأنا أعرف من هم، ولكن طالما بقيتُ على قيد الحياة، فهذا كلّ ما كنتُ أرجوه وقتها.
نزلتُ إلى الحديقة لأتمشى، وقفت أتأمل الهدوء الذي يسود في رحاب القصر الواسع، خرجت عبر الباب الزجاجي الموجود في الصالة والذي يفضي بي إلى الحديقة، وفي أثناء شرودي إذا برصاصتين تطلقان وتصيبان الباب الزجاجي، فتهشم الزجاج على الفور.. فألقيت نفسي على الفور على الأرض فتدحرجت خلف شجيرات الورود والطين يتناثر قبالة وجهي من أثر الضرب الشديد.. كنت أحاول إخفاء نفسي بأي وسيلة ولكن دون جدوى.. إذ كانوا يمشطون المكان بشكل عشوائي.. جثوت على ركبتي.. ثم أطلقتْ رصاصتان إضافيتان بعد هدوء قصير أصابت الشجيرات التي أمامي التي تطايرت أوراقها من أثر الرصاص، فحولّتْ رائحة البارود القوية ليلتي إلى كابوس جنوني.
وعملت باهتياج شديد لكي أصل إلى هذا الذي تجرأ ودخل القصر لقتلي، أو بالأحرى لتخويفي ربما، ولكن نزول والدتي وأختي وزوجها منعني من ذلك.. فلم يسعفني الوقت لأمنعهم من النزول أو حتى تحذيرهم، وما إن اتجهوا جميعًا إلى الصالة

الـتي يفضي بابهـا المتهشّـم مباشـرة إلى مكان الهجـوم، حتى أمطرهم أحـد المهاجمين من جهة أخـرى بوابل من الرصاص، قبـل أن يصلـوا إلى إغاثـتي، حتى مـلأ صوت الضجيـج الغليظ المـكان المظلم من الحديقة بفعل البندقية الرشاشـة التي طالت رصاصاتها كل شيء حتى أمّي وزوج أختي.

فانطلقـت الرصاصـات عـبر المـروج حولنـا على نحـو أخرق، فارتطمت القاذورات بخدي ووجهي ضاربة جبهتي وأنا مسـتلقٍ على الأرض خلف الشـجيرات، أنحـني الآن خائفًـا وكأني أصلي، أتدحـرج تـارة وأتنقل مـن مكان إلى مـكان تارة أخـرى، حتى أدركت أنها ليسـت محاولة اغتيال، بل رسـالة قاسـية تهدف إلى شيء ما ربما أعرف فحواها أو أجهلها !

رسالة كلّفتني حياة أغلى إنسانة في حياتي وحياة أختي.. كانت طلقات الرصاص تخترق جسـديهما.. ذلـك البغيض قُتل أيضًا، حيثُ أتلفت الطلقات كلّ شـيء فيهما، أما أختي فاختبأت خلف نصـف حائط للديكـور صغير وضعـت عليه بعـض المزهريات للزينة، ولم تطلها أي رصاصة، حيث تحطمّت مزهريات الورود وانسـكب ما فيها من ماء على رأسـها وهي ترتعد خوفا وتبكي، كان وجهها ملطخًا بالدماء من أثر جروح طفيفة نتيجة تقاذف

شـظايا الزجاج والحوائـط أثناء الهجوم، كانـت مرتبكة، تبكي بشدّة وقد تبولّتْ على نفسها من الرعب، وقد أسندت جسدها على الحائط.

أخذتُ ألهثُ وأنا أستنشق جرعات هواء كبيرة من الهواء، أُخرجها بقوة تكفي لجعل شفتيّ ترفرفان مثل ستائر النوافذ، وعندما انتهـت حالة الرشـق العمياء بالرصاص علـى كل أجزاء المكان انتظـرت قليلًا، وعندما أحسسـت بأن الخطـر قد زال نهضت بسـرعة لأركض بجنـون داخل الصالة، وأتفقد جسـد والدتي وهـي ملقـاة على الأرض مضرّجـة بدمائها، كنـت أحترق من البكاء والحزن، لم أتحمل ما أرى حتى كدت أفقد الوعي، ثقبها الرصاص بوحشـية كبيرة.. ترامى إلى سمعي صوت بكاء أختي فوضعـت رأس والدتي برفق علـى الأرض لأطمئن على أختي، لم يكـن يهمـني زوجها بقدر مـا تهمني..كانت نوافـذ الصالة متهشـمة والحيطان طالها الطلاقات فنخرتها بشدّة، فانتشرت الأجزاء الكبيرة للزجاج في كل مـكان، وقد أُتلفت أثاث الصالة، وكلّ شـيء تحطّم بالكامل، عندما وصلت إلى أختي كان الرعب قد أكل وشـرب عليهـا، وجدتها مختبئة خلـف نصف الحائط الـذي طاله نصيبه من الرصاص، أسـرعت إليهـا وضممتها في

حضني محاولاً احتواءها وتخفيف الرعب الذي استولى عليها.
احتضنا بعضنا بعضًا بشكل هستيري اجتاحنا..إذ لم يكن في الحسبان هذه المداهمة المفاجئة لقصرنا.. لقد كانَ هجومًا لا يرحم، كانت تركلني لا إراديًّا، وقد فقدت عقلها تمامًا.. كنتُ أحاول وبلا جدوى تهدئتها، وكنتُ أتنشق رائحة الدماء والبارود من حولنا الذي تحوّل إلى جحيم أحمر، فقد حطم الرصاص القوي كل شيء، كنت عاجزًا عن التنفس، أصبحت ساقاي متعبتين جدًا، ثم سقطنا نحن الاثنين على الأرض والدماء تسيل على وجنتي، وتتراكم بجانب أذني، فمحاولة أخرى للهجوم سوف تنهينا وبلا شك في حال لو حاولوا اقتحام الصالة، ولأنني عاجز عن الحركة.. فإنّ استسلامي هذه المرّة مُحتم.
أغمي على أختي وهي في حضني، أمّا الصور فبدأت تتلاشى أمام عيني والأصوات أصبحت غير واضحة، آخر شيء ميّزتهُ كانت أصوات صفّارات ودخول أشخاص وأصوات أقدام ثقيلة تترامى إلى سمعي، ولم أستطع بعدها أن أميّز ماذا حدث بعد ذلك، كل شيء بدا يضمحلّ ويتلاشى أمامي، المنظر بأكمله تلاشى.. والأصوات أصبحت ثقيلة يصعب عليَّ تمييزها.. ثم.. شيئًا فشيئًا.. فقدتُ وعيي.

★★★

(4)
بعد 4 أشهر من الهجوم

بينما كنتُ أجمع شتات روحي، وأهدئ من رعب جسدي المرتعش، لم يمضِ زمنٌ طويل على الحادثة حتى زارني في القصر رجلان غريبان من تركيا، علمتُ فيما بعد أنهما عضوان في الجمعية الماسونية التي لعبت دورًا أساسيًا في إسقاط السلطان "عبد الحميد الثاني"، وساعدت أتاتورك من خلال حروبهِ الوهمية والانتصارات المصطنعة على قلب نظام الحكم وجعله نظامًا جمهوريًا، وقد ابتلع العرب والأتراك ذلك الطُعم، وأيقنوا بأنهم خُدعوا ببطل صنعته الجهات المتآمرة للسيطرة على المنطقة وحذف كل مايتعلق بالإسلام، "وكان العراق آنذاك مسرحًا للجواسيس والعملاء"، كانا يرتديان بذلة سوداء وقميصًا أسود، وزيهما متشابه تقريبًا، تعلو الابتسامة والجدّية في وقت واحد وجهيهما.

راودتني الشكوك عن أصل هذين الرجلين وسبب زيارتهما في هذا التوقيت المُريب، هيئتهما لا تدلان على نية خير، ولا

على أنهما جاءا لقتلي أيضًا، بل فهمت أنهما جاءا ليتفاوضا!
يتفاوضان معي؟
على ماذا؟
ولم يُخطئ حدسي.
أكاد أشمّ رائحة شيء خطير، ليست كتلك الخطورة الاعتيادية التي ابتليتُ بها طيلة السنوات الطويلة الماضية التي مدّت من عمري وأنا برفقة والدي.. نسافر إلى أوروبا لنلتقي مع الماسونيين من أصول عراقية الذين يتحدّثون عن الحرية والمساواة، وأنا كنتُ أصدّقهم، كنتُ أصدّق والدي عندما قال لي بأنهم: إصلاحيين !
ولكني كنتُ أشمّ رائحة كريهة تمشي في أركان القصر، وتنسلّ إلى نوافذها، وتبسط الرعب وعدم الطمأنينة في النفوس البريئة التي تسكن في المناطق النائية بهياجها وهمجيتها في حرم الموت.. ليس فقط الخطر قريب مني، بل من الجميع.
رأيتُ في أعين الزائرين قطرات السموم والكُره تتقطر كقطرات صغيرة بطيئة وثقيلة تختفي وراء الابتسامة التي يرسمانها على ملامحهما.. زيارة بريئة ولكن مضمونها يحمل رسالة ملوَّثة بكل أنواع الشر، مهروسة ومطحونة ومدسوسة

في بواطن نفوسهم.

- البقية في حياتك.. "قال الأول".

- أنت تريد أن تعرف من نحن، ولكن لا تقلق كلّ شيء في أوانه، ستتعرف علينا مع مرور الزمن، فهذه بداية لأول زيارة سيّد "شوقي".

- آه.. "قال الأول مستدركًا": هذه زيارة سرّية نأمل أن تحافظ على سرّيتها.

أيده الثاني بقوله:

- مهمة جدًّا جدًا.

كل هذا وأنا لم أنبس بكلمة حتى الآن من المفاجأة، ولكني بدأت أجمع في داخلي الخطوط المتشابكة حول العلاقة بين الهجوم الأخير ومقتل الملك "غازي" ووالدي، وبين هذه الزيارة المخيفة.

أكاد أرى الكراهية التي تتخفّى في لباس الابتسامة الصفراء التي يبثها وجهاهما، تتسابق مع دمائهم في عروقهم، لا شيء إلا أنفاسنا بفحيحها تنزل وتتصاعد في جو أصبح كالجحيم بالنسبة ليّ، كان الصمت في هذا الجو أعلى من صخب أفكاري التي لم تبرح قفص عقلي، لم يتعبني قدر ما أتعبني أسلوبهم

المخيف الهادئ، وذكاؤهم ودهاؤهم، قال الأول:

- ستعرفنا من نحن، من خلال الحديث، أنت ذكيٌ جدًّا، وكان هذا أحد الأسباب لاختيارك أن تكون كابن لنا.. بعد اغتيال السيد الوالد، لقد كان نِعم الرجل الوفيّ الصادق الأمين، وفي الوقت نفسه، ولا يخفي عليك بأننا نرحم من نرحم، ولا نرحم من نمقته حتى ولو كان طفلاً في رحم أمّه، لو تطلب الأمر أن نتخلص من شرّ الاثنين، "تغيّرت اللهجة فجأة إلى شُبه تهديد" ! تمتمت:

- من أنتم؟

أجاب الثاني وقد ركز عليّ نظرة جامدة كادت أن تسقطني من مقعدي:

- كان والدك يعمل لحسابنا، وأنت أيضًا.. ولكن من دون أن تعرف ذلك، لقد خدمتما المنظمة سنين طوالًا وأنت كنتَ لا تعلم لصالح من تعمل، وكل الأموال التي كانت تمول أعمالك كانت منّا، وكل سند كُنتَ توقع عليه هي في الحقيقة سندات إثبات تقاضي أجورك كعميل لنا لقاء ما تقوم به من خدمات جليلة لصالح منظمتنا.

لم يعد هناك قطرة دم في عروقي، لقد أُلْجم اللسان، فأدركتُ

أنني مجرد ريشة أمام إعصار قوي سيسحق حتى الملك "فيصل الثاني" وعرشه، فاكتفيت بالصمت، حتى قال الأول:

- ولكن لا تقلق كلّ شيء مدفون.

- ولكنني كنت أخدم وطني.

- نعم هذا صحيح، في الظاهر فقط.. تزوّد المعارضة بأخبار وخطط عن الملك "غازي"، ولكن في الأصل المعارضة هم نحن، عراقيو المهجر، تغرّبنا لإنقاذ البلد، وتآمرنا في سبيل إنقاذ مصالحنا، نحن من كُنّا نريد أن نعرف كلّ شئ يجري داخل القصر الملكي، ونحن من سيقرر اختيار نظام قومي مناسب لهذه الدولة، ونحن من نقرر كيف تؤسس طوائف معينة تخدم مستقبلنا السياسي، يا سيّد "شوقي" بيك."قال بصرامة وجدّية".

- إذن بهذا أوهمتم العرب بأن السلطان "عبد الحميد الثاني" هو محتل أجنبي، وأن العرب يجب أن يستعيدوا الخلافة من العثمانيين، ومهدّتم لثورة مدمرة لكبح جماح الدولة العثمانية التي كانت المانع أمامكم من السيطرة على أوطاننا، وأنا كالغبي كنتُ أصدّق ذلك.. تمامًا كما كان يفعل عملاء الماسونية المقرّبين من السلطان "عبد الحميد" الذين ادّعوا

الإصلاح وأدخلوا الدولة في حرب عالمية.. وعندما هُزموا أدركوا خطأهم وفرّوا خارج البلاد وقُتلوا غدرًا...

قال الثاني مقاطعًا بشيء من الحدّة:

- أنتم تصدقون كلّ شيء لأنكم فقدتم سُبل التمكين، تعرفون سرّ ضعفكم، ولكن لا تُصلحون أنفسكم، تكتفون بالشكوى والتذمر من أحوال العرب ولا تعملون لاسترداد هيبتكم، وتتحسرون على أمجادكم التي ضاعت، تستسلمون للهزائم وتنتظرون مُخلّصًا سيطول ظهوره أو لن يظهر بالمرّة.. عمَّ ماذا تتكلم والغلبة للأقوى.

نظر إليّ الأول بشيء من الرأفة قائلًا:

- والدك كان يعمل لجهتنا وكان مخلصًا لنا، كان ابنًا بارًّا لنا، على فكرة مستر "شوقي" عزيزي نحن لدينا أدّلة إدانة ضدك توصلك إلى حبل المشنقة، الإعانات التي كنت تتلقاها كلها موّثقة بإيصالات وشيكات موقعة من طرفك وطرف والدك، لقاء خدمات كانت تُقدّم لنا، ووثائق تؤكد تورطكما بتزويدنا بمعلومات عن تحركات الملك "غازي" قبل اغتياله، فلا تُثر زوابع قد تؤدي بك إلى التهلكة.

كنتُ قد بدأت في العرق وأنفاسي بدأت تتضارب داخل صدري

والمحُملة بالبخار الحـار كانت كفيلة بأن يتصفد جبيني عرقًا يبلل وجهي وجسدي، وحتى ملابسي، ولم يكن من الحكمة أن أعـارض ما يقولانه أو حتى أُكذّب كلمة واحدة، إنهما موفودان مـن جهة أقوى من كلّ منظمة في العالم، وأعلم أنني لو رفضت ما يقولانه فسيكون مصيري كمصير والدي بل أسوأ.

دخل الأول في صُلب الموضوع مباشرة قائلًا:

- توجـد وثائـق أصليـة في خزانة والـدك السـريّة، وخرائط ومعلومات كنّا نعتمد عليها في تنفيذ ما نريده منه، ولا يُخفى عليك بأن الوقت قد حان لاستعادتها، وعليك أن تساعدنا علي ذلك.

كان عليَّ أن أطوي انفعالـي وخوفي في جنبيَّ، ولكن فات الأوان، وهاهما الآن يمليان عليّ ما يجب فعله من خدمات أولية، وربما سـتتطور المهمـات لأكـون العميل المخلـص، أو الابـن البار وإلا يتخلّصـون مني في أقرب فرصة، أعرف جيـدًا بأنني متورط، والمصيبـة أنني جالس مُكبّل اليدين و لسـت مخيرًا أن أوافق أو أرفض.

كان رذاذ المطـر في الخـارج الرقيـق قد بدأ ينـزل وازداد فجأة ليصبـح مطرًا غزيـرًا لدقائق فقـط.. لقد كانا ينظـران إليّ

بتركيز ثابت، وجامد، وأحسستُ بأنّ بدني ووجودي كلّه بدأ يتضاءل أمامهما عندما كانا ينظران إليّ، قام الأول واتجه نحوي بخطوات وئيدة، ووقف أمامي، ثمّ مال بجذعه ليكون رأسه بمستوى رأسي وعيناه بمستوي عينيَّ اللتين بدأتا تزوغان من الحيرة والخوف، لطمتْ يدهُ خدّي برفق ثمّ ربتَ على كتفي قائلًا:

- هه، ماذا قررت يا ابننا العزيز؟

- لن أكون خادمًا لأحد، لقد أدركتُ خطئي ولن أُلدغَ من الجُحر مرتين.

- إذن أنت من النوع الذي يُحب أن يتسلّى بالنار.

ثم التفت إلى صاحبه قائلًا:

- إذًا لنمشِ يا صديقي.. ونترك الحكومة تتسلّى به قليلًا.

كان الثانيَ محافظًا على هدوئه، يرتدي نظارة ذات عدستين صغيرتين سميكتين، كان وجهه تعلوه ابتسامة بغيضة مسرورة تمامًا كصاحبه، وكأنهما توأمان في الزى والحقارة، وقبل أن يغادرا، همّ الثاني بفتح الباب ليخرج فالتفت إليّ قائلًا بحدّة بعد أن خرج الأول:

- أنت من النوع الذي تُحب العوم مع التماسيح فلندعها إذن تأكلك.

وتبِـع صاحبه الأول تاركًا الباب مفتوحًـا، اندفعت ناهضًا من مكانـي لأغلق الباب، أمعنت النظر إلى الفضاء الرحب الواسـع، فقد كان المطر قد توقف، مسببًا عتمة باكرة في السماء، وكانت الأضـواء متوهجـة على نحو غامـض في الظـلام في كل أطراف القصر، لم يكن ما أراهُ اعتياديًا، ربما بسـبب الضغط النفسـي والخوف، أم أنّ الله سيأمر بقلب العالم علينا,كانا يبتعدان شيئًا فشيئًا حتى اقتربا من البوابة كظلال وهمية، فتح الحارس لهما الباب وكانت هناك سـيارة سـوداء تنتظرهما، ركبا فانطلقت بهما بسرعة حتى غلّفها الظلام.

★★★

(5)
بعد فترة طويلة من الحادثة

الأمل في الزمن إذن، هو أيضًا يُميت ويُحيي، ولكن عن أي نوع من الأمل نتحدث؟

وقد بدا كلّ شيء من حولنا يؤول إلى جحيم، كلّما امتلأ من التعساء صاح: هل من مزيد؟.

في صبيحة أحد الأيام، وبعد مرور وقت ليس بطويل على زيارة الرجلين، زارتني في القصر امرأة في غاية الجمال والأناقة، والمفارقة أنني أعشق النساء، أنهارُ أمام السيقان الطويلة السمراء والبيضاء التي تخطو برشاقةٍ، كنسيم مندفع عبر النهر، كانت امرأة من النوع التي أجنّ لألمس شيئًا ولو بسيطًا منها، أو حتى ألمس طرفًا من ثوبها، والحقّ أنني لا أشتهي أجساد النساءْ كُليًا فحسب، بل عقولهن أيضًا، عقلها، الدّفق أحادي الاتجاه الهائل والمُقسّم بدقة، مثل تجربة فيزيائية، ويا لمتعتي من التحدّث إلى امرأة ذكية ترتدي الجوارب الشفافة مصالبةً ساقيها.

كان سبب زيارتها لمساعدتها في رفع منع السفر عنها، وأخبرتني

أثناء حديثنا أنّ زوجها هو سـبب المشكلة بعدما تورط مع أحد السياسـيين بسـبب رفضه أن يشـارك جـبرًا الرجل السياسـي في مشـاريعه الضخمـة، وبعد رفضه بيوم واحد اختفى بشـكلٍ مفاجـئ.. وضابـط التحقيق قد أمـر بمنعها من السـفر حتى إشـعارٍ آخـر وأصدر عن طريـق المحكمة، أمرًا بذلـك ووضع يد الدولة على أموالها المنقولـة وغير المنقولة، الأمر تطور معها إلى حدٍّ كان رجال الأمن يضايقونها في حياتها أيضًا.

جلسـنا في صالة الضيوف، فصبّت الخادمة الشاي لنا وانصرفت، كان جمالهـا خُرافيًا، فأصابني الدوار، عـلام أركّز؟ على جمالها، أم علـى قضيتها، تمنيت لو أنّ الأرض تكفُ عن الدوران ليتوقف الوقت، ويطول جلوسنا.. ولا تعود أختي من مشوارها إلى ما شاء الله.

نظرات السيدة كانت دافئة، وعميقة ومراوغة، لم تكن مقصرة في إبـداء مفاتنهـا ورزانتها معًا.. هذا النوع مـن الطراز الأنثوي والنضج المتخطي لعمرها يقتلني.

كانت امرأة في بداية الثلاثينيات، حسناء، كانت ممتلئة قليلًا في تكوين حسـن، مثيرة رغم رزانتها واحتشـامها، أو ربما لرزانتها واحتشـامها، فبدأتُ أغرق مثل سـفينة في بحر محترق، مشاعر

أحسّ وكأنّ حافة الأرض ترتعش بسديم معتم، وفوقي تقبع الشمس.. هل هو انبعاث روحي في جسدي الميت؟

كانت رئتاي وهي تتكلم عن مأساتها مع رجال الأمن وظلمهم لها، تحترقان في صدري، مع ثقل في ساقيّ يبدوان كأنهما جوهر جاذبية الأرض.

الملعونة تمتلك عينًا دقيقة ومدّربة على التقاط الكوارث شبه الخفية عندما يتدّمر من يجلس معها، العين برّاقة ونشيطة، لها المظهر المنقاري، وفم مذموم صغير، أعادت إليَّ اكتشاف نفسي، تتنبه بشأن تمزقي الوشيك، لقد أعدت النظر إلى كارثة جمالها عشرات المرات، كنتُ خارج المحيط المعتاد، وحيدًا، غير واضح، الاسم الذي أمنحه لهذه العملية المعقدّة هو "الهستيريا".

نسيتُ مأساتي وكنتُ أركّز عينيّ على مفرق نهديها، أتساءل، إذا ما استطعت يومًا لو انجلت كُربتها أن أتوسد اليُمنى أو حتى اليُسرى أو كليهما، كما لو أني أتقي عاصفة لا ترحم.

كانت تتكلم بغنج لا يرحم، أصبح جسدها منبع عزمي، كنت أتدّمر وأنا أراقب رجرجة صدرها عندما تلقفت فنجان الشاي من على الطاولة، أريد أن أقفز بين حضنها كالطفل، كما تذهب غواصة مصابة إلى حوض الصيانة، فكنتُ أستمد

القوة من نهديها، ويديهـا المتحركتين، أطراف أناملها المنزلقة على حافّة الفنجان المسـكين.. خفتُ على الفنجان من التصدّع والانفجـار,أردتُ التركيـز علـى الموضـوع وهذا محـال بالطبع، فقالت بحزن:

-أريـد أن أسـافر إلى أوروبا ولكن المسـئولين منعوني، ولكن أحد الموظفـين في الجـوازات نصحـني بأن ألجـأ إليك لكونـك مازلتَ تتمتـع بعلاقات كبيرة مع رجال الدولة.. لكي تخلصني من هذا المأزق.

استجمعتُ نفسي قائلًا:

- طبعًا طبعًا.. خير ما فعلتِ سـيدتي.. أنا دائمًا وظيفتي خدمة الوطـن وأبنـاء الوطـن المظلومـين، وخدمـة الشـعب جزء من مسؤوليتي الوطنية، فكيف لا أنجز عملك وأنا مازلتُ قادرًا على تقديم العون للجميع.

- صدّقـني سيّد"شـوقي بيـك"، لـن أنسـى لـك هـذا المعـروف وسأتذكرك دائمًا وأنا في أوروبا.

- سيدة...

- مناهل "قالت مقاطعة".

- عاشـت الأسـامي، اسـم على مسـمى، سـوف أتصل بأشـخاص

أعرفهم لكي يرفعوا هذا الحظر الجائر عنكِ.. وسأحاول أن أفهم الموضوع من الشخص الذي حظركِ من السفر شخصيًّا.. ولا تقلقي كل المسئولين في القصر الملكي أصدقائي، وسيتعاونون معي لمساعدتك.

- صدّقني "شوقي بيك" لا أعرف كيف أشكرك.

- رضاكِ هو كلّ شيء.

- أنت شخص ذو ذوق رفيع.. وأتمنى أن نلتقي مرّة أخرى على طاولة العشاء.. كشكر مني لك على مساعدتي.

لا أصدق ما أسمع، بل كنتُ على وشك أن أقع من على الكنبة الواسعة، وأفقد توازني وأنا جالس، ثم واصلت هي كلامها:

-أنا وحيدة في منزلي ولا مانع من زيارتي إذا أحببت مساء الخميس.

- بالطبع، فهذا شرف لي.

أخرجتْ قلمًا ثم طلبت مني ورقة.. وكأسرع من وميض البرق أحضرتُ لها كشكولًا صغيرًا وناولتها.. كتبت هي عنوانها ثم وضعت الكشكول على الطاولة بهدوء.. ثم سألت:

-ما نوع النبيذ الذي تحبه؟

- أنا أحب النبيذ الشيرازي الأحمر "الأسترالي".

- يا للمصادفة أنا أيضًا أعشقه.

- عنـدي نبيذ معتـق جاءني من الأندر ين السـورية، فكما قال الشاعر الجاهلي "عمرو بن كلثوم":

"إلا هُبّي بِصَحْنِكِ فأصْبَحِينا ولا تُبْقي خُمُورَ الأندر ينا "

- يا لروعتك وتحفظ أشعارًا عن الخمور.

- بسـبب أصالتهـا.. فالخمـر الأصيـل يُضيـف إلى الحياة نشـعه خاصـة.. بل إنّ يزيد بـن معاوية كانَ مُخلصًا في عشـقهِ للخمر فأطلقَ القصائد الأصيلة بهذا الخصوص.

- إذن أريـني أصالـة النبيـذ عندما تزورني ليلـة الخميس على العشاء.

قامت من جلسـتها وكأنها أفروديت في أنوثتها، فكيف لهذه المرأة الـتي تحمل كلّ هـذه الأنوثـة أن لا يُدركها رجلٌ ثائر وعاشـق مجنون؟

لبِسـت معطفها الأسـود، ومـدّت يدها وكأنها شمـعٌ لتصافحني، لمستها بحرارة وآنستُ في عينيها الرضا، بل وكلّ الرضا.. أوصلتها إلى بـاب القصر وظللتُ أتابعها بعيـني حتى اختفت من البوابة الرئيسية للقصر.. ذابت في طريق مجهول، وأنا كنتُ عاجزًا عن التنفس.. لقد نسيتُ كل مصائبي.

(6)

الأمور لا تسير على ما يرام في هذا البلد، فالبلد الحزينُ دومًا، غارقٌ اليوم في القيل والقال، وبين مآسي الفتن والطابور الخامس الذي يسرح ويمرح كالفأر بين الأزقة المتهالكة الجدران، ينفث سمومه في جلود الفقراء والناس البسطاء الذين يحلمون ببلد يوفر لهم الأمن والأمان: "الملك على وشك أن يشنّ حربًا اقتصادية على بريطانيا العُظمى بالتعاون مع أمريكا، أو الملك مهدد بالإزالة من عرشه، أو أسلحة تدخل البلد وتتسلمها أيادي الضباط الأحرار بغية تنحية الملك وتحقيق العدالة والمساواة!"، آه المساواة ! هي نفس الكلمات التي أدخلتها الماسونية إلى الدولة العثمانية مُتّبلة مع كلمة الحرية والعدالة للإطاحة بالسلطان، وبعد خلع الأخير ندم كلّ معارضيه الذين وقعوا في طُعم الغرب وأدركوا بعد فوات الأوان ذلك.. وسقطوا بالتالي في فخّ أوروبا الرامي إلى الإطاحة بالإسلام، وهربوا كل المعارضين إلى أوروبا بعدما ورّطوا الدولة العثمانية بإشراكها

رغمًا عنها في الحرب العالمية الأولى.. ومن ثمّ تم قتلهم جميعًا في مقرات إقامتهم في أوروبا.

كنتُ في مكتبي مُنكبًّا على أوراق معاملات مهمة يجب إنجازها,أعمل بجدّية غير عادية هذه الأيام ولا أري سببًا لذلك، راضيًا بما قسمه الله لي بعد مقتل والديَّ، وكانت تصلني من الموظفين في قصر الرحاب أخبار أعرف بأنها إشاعات تسعى لإثارة نزعات ثورية لدى الشعب ضد الملك، فقد كان الديوان الملكي يسعى إلى تكذيب هذه الإشاعات المغرضة.. ولكنها كالأعشاب الضارّة تستأصلها من مكان فتنبت على غير موعد في مكان ثاني.. "الإشاعة بذرة خبيثة" تهلك كل من يُصدّقها.

كدتُ أتهيأ لزيارة مدير الجوازات من أجل الوساطة لرفع الحظر عن السيّدة التي ألهبتني، ولكن زيارة مفاجئة من أحد قادة الجيش العراقي منعتني من الخروج.

هو صديق حميم لوالدي ولي أيضًا، كان القلق باديًا على محياه من أثر الإشاعات، وما تحصل من عمليات سرّية للإطاحة بالملك.. كان يعرفني كتومًا، فقد عملنا معًا في عدد من الشُّعب الحسّاسة آنذاك، كان قلقًا من الضباط الأحرار ومن خططهم التي تهدف للإطاحة بالملك.

وقال بوجوم كبير بأنّ العرب ضاعوا بعد عزل السلطان "عبد الحميد الثاني" الذي كان شوكة في عين اليهود وكلّ من كان ينادي بالتحرر والمساواة، وهذه المصطلحات طبعًا أدخلتها الماسونية إدراكًا منها أن هذه الكلمات الرنّانة جديدة، ولها مفعولها بين المثقفين الشباب، ولولا أنّ السلطان كان مانعًا في إقامة دولة صهيونية في فلسطين لكانت الأخيرة قد ضاعت منذ أمدٍ بعيد.. وإن أتاتورك قضى على كلّ المعالم الإسلامية الأصيلة بعلمانيتها وتقليدها لأوربا، وانخدع الكثيرون من العرب بثورته التي مهدتها له بريطانيا من أجل أن تحقق مخططاتها، وحارب الإرث العثماني، وهجّر أحفاد عثمان بن أرطغل بعد مصادرة أموالهم وإذلالهم، وتطرق حزينًا وأنا أستمع إليه بصبر كبير.. كيف حارب الذئب الأغبر لغة القرآن وجعل الأذان بالتركية.

من الأمور التي جعلتني أنتبه إليه وأنسى مشواري هو قلقه غير العادي حول تصفية رجال الدولة هذه الأيام، وطبعًا لكي أهدئ من قلقه طلبت الشاي.. فقد بدأ يتعرق بشدة ويمسح عرقه ويده ترتعش.. وأنا لم أكن أقلّ منه رُعبًا بالطبع.

جاءَ الخادم بصينية الشاي ووضعها على سطح المكتب بهدوء

وخـرج، وضعت فنجان الشـاي أمامه وأخـذت الفنجان الآخر وارتشفنا معًا رشفة غير طبيعية، وكأننا لم نشرب الشاي منذ مدة طويلة، فكان تأثير الشاي قد ظهر عليه من خلال الراحة التي بدأت ترتسم على وجهه.

قال وقد تغيرت ملامحه نحو الأحسن:

-الماسونية بعد إسقاطها للسـلطان المفترى عليه" بدأت تتغلغل في كلّ شيء، أصبح لهم رجال في كلّ مكان في العراق، وخصوصًا في قصر الرحاب وبين فصائل الجيش.. يتحلّون بأفكارهم دون أن يُدركوا خطورة انغماسـهم في هذا الفكر.. الضباط هم دمى الماسـونيين، هم من يحاولون تغيير النظـام الملكي الآن، والملك لا يتحرك بالرغم من شـكّه فيهم، التخطيط على قدم وسـاق للإطاحة به.

- إذن الإشاعات المُسرّبة صحيحة؟

- ليسـت كلهـا، أغلبها لجلـب الفوضـى والفتن الطائفيـة.. أمّا أخبـار الإطاحـة فمـا خُفـي كان أعظـم، ويـا ليتـني أحصل علـى أسماء الضباط، أقسـم بالله لن أرحمهم، ولكـني أعلم بأنّ أكثرهم شـيوعيون، أمّا أخبار استغناء الملك عن قوة بريطانيا واسـتبدالها بأمريكا كحليف أقوى سـوف يـؤول بنا إلى الدمار،

فليست كل خطط الملك ستكلل بالنجاح، عندما نلاحظ سبب سقوط الإمبراطورية العثمانية قبل سنين قليلة، كانت بسبب استيراد الأفكار الغربية والعمل بها، وتغيير الدستور العثماني بآخر أوروبي وتطبيقها قبل حُكم السلطان "عبد الحميد" بقرنين تقريبًا.. فأين ذهبت أفكارنا نحنُ إذن .. لا بأس من دراسة تكنولوجيا الغرب وتبادل الخبرات، ولكن أن نُقلّدهم في كلّ شيء فتلك مصيبة أعظم ستفكك مجتمعنا أكثر لو سرنا بهذه الطريقة بعد سنوات من الآن.. سيضربون مجتمعنا من خلال الفساد الأخلاقي، والأهم من كلّ ذلك كيف سنُقيم دولة إذا تفشّت فيها روح الطائفية فينا، وحارب بعضنا بعضًا، نحن شعوب لا تستطيع أن تتعامل مع الديمقراطية بشكل صحيح، لأننا فوضويون وحُكامنا جُدد وبلا خبرة اختارهم الغرب، أين سنكون من مخطط أوروبا،أين؟

- معلوم أنهم يضربون على أوتار تؤثر فينا.. المال والجنس والطائفية.

- الخطة الآن إحياء الطائفية بيننا وبين اليهود، ومن ثمّ ستتطور إلى ضرب بقية الطوائف تحت مُسميّات الانقلابات من أجل الرفاهية.

- الثورة خبز الحياة، على أساس أنها تُغير الواقع القبيح بآخر جميل، والأجندات التي تساعد على الفتك بالعرب تعرف بأنّ أدمغتنا لا تساوي فلسًا أحمر، فأي حركة ستندلع باسم معين فإن الشعب لن يُكذّب الخبر، فسيثور ويخرج منددًا بالجور الواقع عليه، وحتى لو كان الحاكم مُرسلاً من السماء سيقتلونه هم، ونحن نولول ونبكي على المقتول، عقيد "نامق" لا أعتقد بأن هذه الحركات سوف تغير من الواقع شيئًا، فالجسد قد مات ولا يحييه الماء من جديد إلا بمعجزة، نحن ننتقل من السيئ إلى الأسوأ.. واقع الحال متدنٍ، والشعب لا يعي ما يريد، بعد آخر مجزرة حصلت في بيتنا جعلتني أؤمن بأنّ لا جيد ولا جديد سيطرأ علينا.. كلّ جديد سيكون وبالًا علينا.

- وأنا أقسم لك برب الكعبة بأننا هالكونْ، أمريكا التي سافر إليها الملك، قبل مدة، هي من ستقصف ظهورنا حتى ولو بعد 100 عام، وهي أول مسمار في نعش الدولة العراقية، هي مازالت جديدة، وبمجرد أن تشارك في حرب دموية وتنتصر سوف تحتل العالم، لا أحد يرى أبعاد ولادتها بعد، أما ما حصل لك فلو نزل على مواطن أوروبي بسيط لقامت الدنيا ولم تقعد.. ولتحرّكت الأجهزة الأمنية فورًا لمعرفة الجاني.

لا أعلم بم أجيبه، كلامه صحيح، ولكن كلّ ما أريده الآن فقط أن أعيش في سلام، لديَّ رغبة في فعل شيء، ولكن لا أستطيع، كلّ يوم أفكر في الرجلين الغامضين وأفكّر بسبب القلق الذي يلازمني، في فكرة أن أتعاون معهما من أجل أن أُنعم بفرصة الحياة الآمنة لأنني أعرف أن لا مستقبل مضمون مع دولتي، وأيضًا نهاية العمل مع المنظمة القتل المؤكد، أعلم يقينًا بأنّ بلادنا ستخلو من الوطنيين.. ومن الذي يدّعي الوطنية هو في نظري أفّاقٌ أفّاق، وإذا حاولتُ أن أصبح بطلًا يومًا ما، فالبطولة ستؤدي بي إلى القبر حتمًا، وهذه شهادة مبكرّة عليَّ كرجل لم أنعم بالحياة الجميلة بعد، وخاصّة بعد وفاة والدي، أريد أن أعوّض زمن الحرمان الذي عشته في أيامه.. ولكن حتى ولو قبلت التعاون مع المنظمة فهل سأنجح في اللعب مع الكبار؟

★★★

(7)
بغداد تستقبل أعاصير الموت

كان السبت الموافق للعشرين من كانون الأول هو تاريخ اغتيال العقيد نامق، مع أربعة آخرين من الضباط الأذكياء في عقر دارهم، وأغلب حوادث الاغتيالات كانت تتم بطرق متشابهة وتقليدية.. ونادرًا ما كنتَ تجد طريقة مبتكرة مختلفة في اغتيال شخصية جديدة، إمّا في مطعم أو في طريق عودة الضابط إلى بيته مع السائق فيتم قتل الاثنين معًا.. أو تسمع السائق وهو يتولى العملية الخطيرة بمفرده ويقتل الجندي المرافق للضابط بسرعة مستغلاً غفلته.

انبعثت في هذا المساء رائحة غريبة في سماء بغداد، "رائحة الفتنة" والحرب والإثم.. إنها رائحة الجريمة، عندها كان العقيد "نامق" منغلقًا على نفسه مثل قبر.. في أيامه الأخيرة، حيثُ تجرأت مجاميع لا تحمل شارة أو اسم منظمة معينة علي قتل خمسة ضباط أمام مبنى وزارة الدفاع رشقًا بالرصاص وهم خارجون من الوزارة بعد انتهاء الدوام الرسمي، وتلتها في

الأيام التالية عدة عمليات تصفية جسدية لشخصيات مهمة وتفجير دموي في أحد المقاهي في ضواحي بغداد.

أمّا السيناريوهات الدموية التي تتم تدبيرها ضد العائلة الحاكمة فهي تقريبًا شبيهة بالسيناريوهات التي خُططت ودُبّرت أيام السلطان "عبد الحميد الثاني" لإزاحته.. بعد أن تم الادعاء عليه كذِبًا بأنه سلطان جائر وديكتاتوري، وتمّ الافتراء عليه وتشويه صورته دوليًا بين الشعوب التي صدّقت كلام الصّحف الكاذبة، السلطان الداهية الذي دوّخ بسياسته أوروبا اُفترى عليه من قِبل قوى كُبرى عملت قرونًا طويلة وبلا كلل لإنهاء الخلافة الإسلامية.. كان السيف الذي يقصم كل يد تُطال فلسطين من قبل اليهود، تم إزاحته لكي تفرغ الساحة السياسية للاستعمار الذي أمر بتقسيم الوطن العربي بعد ذلك، وترسيم الحدود بين الشعوب التي لم تكن تعرف التفرقة.. وهذا هو الحال الآن، عندما يتم تسريب الإشاعات ضدّ العائلة المالكة في العراق، وتقول إنهم يمتازون بتسلط الأسرة الحاكمة على رقاب الشعب، وإنّ العراق باتَ يعيش في الفساد والفقر ومصادرة الحرّيات الفردية تحت غياب الديمقراطية.. وإنّ الأحزاب السياسية التي تشكلّت ما هي إلا في

الجوهر أوكار لشـلّة من الإقطاعيين والتجار وسماسرة الشيوخ والأغوات، الذين يُشرف عليهم سفير بريطانيا ومخابراتها، أنا بصراحـة لا أنكـر كلّ ذلـك.. ولكن هل ما بعد الملكية سـيأتي رجال يقدمون للوطن ما لم يقدمه من سبقوهم إلى السلطة؟! وقيـل أيضًـا إن بريطانيا هي مـن كانت تُدير شـؤون المملكة والعمليـات السياسـية وأعمال البرلمـان وإدارة الحُكم الفعلي في العراق، فانتشـر حسب ادعائهم، الانحلال السياسي والأخلاقي والاقتصـادي في عموم البلاد، فأدّت كل هـذه الأمور إلى اندلاع أعمال عنف في أنحاء البلاد.

قيل إن الملك ليس من أبناء الشـعب العراقي، وليسـت لديه أية فكرة عن فسيفسـاء الشـعب العراقي، وطبيعة المجتمع، وبهذه الكلمات اسـتطاعوا إثارة الشـعب وزرع الفتن واحتواء الشارع العراقي بشـكل غير طبيعي؛ باعتبـار أن الملك لم يوفق في حلّ أزمات الدولة وإيجاد مناخ مشترك للملمة مشاكل الشعب وحلّها بشكل سليم، بقدر همّهُ في رسم البعد العربي في الدولة.

مازلـتُ أذكر كيف احتدمت الأوضاع الداخلية في البلد بشـكل ملفـت من أيـام الملـك "فيصـل الأول".. فالأكـراد انتفضوا في الشـمال بقيادة "محمود البزر نجـي"، واحتدمت أعمال العنف

في المدن العراقية، وبالأخص في البصرة والديوانية، وسوق الشيوخ والموصل والسماوة، وتحديدًا في أيار "1391م" بسبب إجراءات "نوري السعيد" في قرار قانون رسوم البلديات، وكانت الإشاعات التي بثها الطابور الخامس قوية بحيث أقنعت الشعب بأن "فيصل الأول" أصبح يكيل الشعب بمكيالين، وأنه يُمارس التفرقة وسياسة عنصرية حيثُ تردّد ذلك في عموم العراق.. وأشيع أيضًا "افتراءً طبعًا" بأنه صرّح من أول يوم توليه الحُكم بأن "العراق دولة سُنيّة"، وبأنه يوزع المناصب للسُنّة والضرائب على الشيعة، فلمّا نجحت تلك الإشاعات في ضرب الصف العراقي، أخذ المندّسون وعملاء بريطانيا يُعظّمون هذه الأمور إلى درجة إثارة الحساسيات بين الطوائف الإسلامية، والضرب على الوتيرة الطائفية والمذهبية، حتى تطورت الأوضاع الأمنية إلى قمتها في عام 1933م، في قضية مجزرة الأشوريين في الموصل، وأصبح الشعب متذمرًا أكثر من فكرة أنّ " الملك ليسَ عراقيًا".

★★★

(8)
يحدُث الآن

كان هناك حِرّيف واحد على الساحة العراقية ممّن كان يمّول أسلحة دموية في قتل الناس.. وتهريب الأسلحة عبر الموانئ العراقية إلى الضباط بغية تنفيذ انقلاب مشئوم ضدّ الملك، حيثُ تجاوزت الساعة السابعة مساءًا، وكان يجلس إلى الطاولة منهمكًا في قراءة كتاب، وقد وُضع أمامه كأس ماء وفنجان قهوة، ارتشفَ منها قليلاً، هذا الحرّيف الستّيني يُدعى "الذئب العجوز" أكبر مهرّب أسلحة وهو جاسوس ذكي جدًا، يتخفّى بشكل يصعب كشفه سواء من خلال الشكل أو المكان.

يهودي يحمل الجنسية البريطانية، تربّى في بلاد العرب وسافر إلى تركيا ودخل دورات تحفيظ القرآن وتلاوته حتى أنه برعَ فيها أكثر من المسلمين أنفسهم، ودرسَ العلوم والأدب وتتلمذَ على يد أكبر أساتذة الجاسوسية في العالم.. وكان والده من الأصدقاء المُقرّبين لـ"ثيودور هرتزل" أيام السلطنة العُثمانية.

كان الظلام قد حلّ بشكل كامل تقريبًا عندما وقفت سيارة

سوداء فاخرة أمام رصيف المقهى، فنزل منها رجل أنيق الملبس والمظهر إنجليزي الجنسية "يهودي عراقي".. يرتدي قميصًا أبيض و بنطالًا أسود، ثم دخل المقهى فاتجه مباشرة نحو "الذئب العجوز".. تصافحا.. ثم جلسا يتحدّثان.

-"عيزرا ناجي زلخا" نورت المقهى وشرّفت.. "قال الذئب العجوز".

- الشرف ليّ، أجابه "عيزرا" بتواضع.

ابتسم "الذئب العجوز"، ولمس حافة قبعته، وكأنها لفتة وداع، لكنه كان يحيي صديقه، الاثنان التقيا لغرض ما، غرض لا يأبه بشيء سوى المصلحة العُليا لإتمام قيام دولتهم من النيل إلى الفرات، كان شيء ما يُفقس كائنات عدمية ومتعالية تسبح في دمهما الآن.

طلب "عيزرا" شايًا من النادل وبعدها بدقائق جاءه النادل بصينية تحمل إبريق الشاي وفنجانًا واحدًا.. ثم ذهب.. صبّ "عيزرا" لنفسه فنجانًا من الشاي المُعطّر بطعم الهيل فكانت أبخرته تصعد وتنعش الأنفاس.. وبابتسامة شديدة الأدب قال "للذئب العجوز":

-الأمور تسير وفق ما نخطط له إلي الآن.

- ليس تمامًا مستر "عيزرا".

- كيف؟

- الملازم "روان" يجب أن تستدرج "شوقي بيك" إلى نهاية اللعبة حتى ننتهي منه.. إرجاع الملف وصندوق الرسائل مهم جدًّا كما تعلم، مخططاتنا لقتل الملك والتلاعب بسياسة هذا البلد، وتمويلنا للأموال للزُمر التي تخدمنا أدّلة قيّدها والده عندما كان يعمل لصالحنا وستُنهي كلّ شيء.. ستفضح منظمتنا لو وقع الملف في أيدي الصحافة.. كلّ ما فعلناه سُيهدد بالخطر إن لن نسترجع الملف ونتلفه إلى الأبد.

- "روان".. "قال بابتسامة ولذّة، ابنة المرحومة "ملاذ" وابنة صديقي "بوشاط" التاجر المتجول بين أحياء بغداد الشعبية، الذي استطاع من خلال بيع بضائعه المختلفة أن يشتهر بين النساء اللاتي أقبلن على سلعه باسمات، فرحات بحديثه العذب، ومداعباته الرقيقة لأطفالهن.. ابنة هذا الرجل الثعلب لن تفشل في مهمتها.. أستاذي وأعرفه جيدًا.

ثم مستدركًا:

-ولكن ماذا لو اكتشف أمر مناهل؟ إذا استفسر عنها "شوقي بيك" في مكتب الجوازات؟

- القضية واقعية وموجودة باسم مناهل، وقد توفيّت أثناء التحقيق.. المدير بنفسه أعلمنا بوجود مثل هذه القضية وقدّمها لنا على طبق من ذهب، ولكن "شوقي بيك" سيسأل وسيحاول حل المشكلة ويكون بطل القضية.. مدير الجوازات يقوم بدوره بشكل رائع، بل وفوق ما تصورناه.. فعلًا بارع.

- ما تزال مقولة السير "تشرشل" تطنّ في أذني " إذا ماتَ العرب.. ماتت الخيانة".

- الأوراق التي في الصندوق تضم تقسيم مناطق العرب وأسماء ضباط اليهود الذين يديرون أعمالًا في البلد بأسماء مسلمين.. للتوصل إليها سيستغرق وقتًا.. آملُ ألا يطول، وكما آمل ألا يكون "شوقي" قد تصرّف بغباء إزاء هذه الأوراق والخرائط.. نريد أن نتخلص منه كما فعلنا مع والده، ولكن بأسرع وقت ممكن، بقاء هذا الرجل كابوس يجثم على صدورنا بالرغم من ذكائه، ولكن علينا دعسه قبل أن يتحوّل إلى غول.

- يجب قتله وإنهاء القلق.. أنا معك وهذا الأمر بسيط للغاية.

- ليس الآن، "أشاح الذئب العجوز بيده"، نحتاجهُ قليلًا لأشياء مهمة.. هي بسيطة لديه ولكن لنا مهمة.. إنه مازال موظفًا في القصر الملكي، وكلّ يوم يتعرف على ما يجري هناك.. نحتاج

أن نستخدمه لفترة من الزمن بطريقة غير مباشرة، مناهل ستتصرف، كما أنّك ستكون حاضرًا في لقاء يوم الخميس بصفتك شقيقها.. وتفاتحه بشأن أمر ترقيته التي هي جاهزة الآن.

- وما أخبار الأسلحة؟

- وصلت الشحنة إلى ميناء البصرة، نحتاج إلى وقت قصير لإنزالها بمساعدة ضابط الأمن وإيصالها إلى بغداد، ومن ثمّ يتم توزيع الأسلحة علي الضباط الأحرار لتسهيل عملية الانقلاب.. بغداد الآن مشحونة بالغلّ على ملكها الشاب.

- لم يبقى شيء.. لم يبقى شيء... "قال هامسًا" تقدّمنا كثيرًا في خطط احتلال سيناء، نار الفتن ستدّب قريبًا في كلّ أنحاء البلدان العربية، وقريبًا ستكون بغداد لنا، العراق أرضنا الموعود بعد أن استرجعنا فلسطين، يا لَسهولة العرب في كسبهم، فعلًا المال يقتل كل شيء حتى الشرف، يجب أن يعيش يهود العراق أسيادًا ويخرجون من عباءة التقية التي ضيّقت على نفوسنا.

- نعم، أوافقك.. اليهود يجب أن يُظهروا وجههم الحقيقي كأقوياء وأسياد في هذا البلد الذي أرهقته الحروب.،. هل تعرف

مستر "عيزرا" ماذا يعجبني في يهوديتنا؟ إننا نُبطن في أنفسنا النوايا، ونخدع المُقابل ثم نطعنه من الخلف كما فعلنا مع الأنبياء.. الحق أقوله لولا طيبة ورحمة المسلمين لما وصلنا لما نحن فيه الآن، لقد اختصروا علينا سنين طوالًا من المجهود والتعب لنيل العُلّو.

- يهود العراق مرّ عليهم قرون وهم في الأسر والعبودية، فمنذ أيام كتبت جريدة "الزوراء" عن قصة "نبوخذ نصر" وكيف سبى اليهود وحكايات عن بابل، وقد جلب هذا الموضوع انتباه القُرّاء، لا أخفي عليك فمازالت تفاهتهم تقلقني، نحن عانينا دهورًا لكي نشوّه صورة السلطنة العثمانية في عيون العرب وإنهائهم، عشنا وكافحنا بصدق، ففتحت لنا أبواب النعيم والنصر، المكر، المكر يا صديقي والذكاء هي إحدى أهم نِعم الله علينا.

- المكر إحدى وسائل النصر التي تهدم من خلالها دولًا عظيمة.. لا يُقلقني شيء بقدر ما يقلقني انتشار الصحافة والكُتب التي تدعو إلى الوحدة والإخاء، فلو قلّ عدد القُرّاء في هذا البلد ازداد تغلغلنا بسهولة، فلا تنسَ أنّ انتشار الفقر والجهل هما من أهم أسلحة الحرب الباردة عليهم.

- أوافقك أيها الذئب الماكر.

- إذن يجب أن تُجهّز رجالك لتسلُّم الشحنة القادمة، فالوقت اقترب، والضباط في انتظار، فلا نؤخرهم عن تحقيق القومية والعدالة للبلد يا صديقي الحميم.

★★★

(9)
تستمر كتابة المذكرات..

.

عيزرا ناجي زلخا

أحد أشهر وأشرس الجواسيس، يهودي عراقي ماكر كالثعلب.. يتصنّع وداعة الأرنب، وعندما يكون شرسًا لا يختلف كثيرًا عن نمر ذي ألف مخلب، ووفقًا للظروف يستطيع أن يتلّون كالحرباء، تُعباني الخطر، ولا يفلت مخلوق من لدغته القاتلة، ولد في الموصل وشهادته أهلّته للعمل كموظف في أرشيف وزارة التجارة ببغداد قبل سفره إلى لندن.

كان يُحب زوجته جدًا، لم تكن جميلة لكنها كانت رقيقة تفيض عذوبة وحنانًا، تزوجها وعاشا سعيدين إلى أن خطفها الموت عندما أصيبت بحمَّى التيفوئيد التي فتكت بها بعد عام من الزواج.

"الذئب العجوز" التقفهُ من فقره، وكانَ صاحب اليد الحانية التي ربتت على كتفه، ذلك اليهودي الكهل الذي ربّاه تربية يهودية وأدخله عالمًا ثانيًا، لا يرحم، فأدخله شرك الجاسوسية،

وضمّـه، بعـد أن تأكد من إخلاص "عيـزرا" لقضيته كيهودي، إلى مدرسـة الجاسوسية وانضمّ إلى الماسـونية بعد أن توسطَت لـه أكبر الشـخصيات اليهوديـة، فبرع الأخير فيهـا وتقلّد أعلى المناصب في المنظمة الماسـونية، وقبل ذلك بسـنين كان "الذئب العجوز" قد سـلّمه إلى صديقه "بوشـاط" لكـي يعاونه في إتمام أهـم الأعمال التي يحتاجها الأخـير في عمله لفترة من الزمن في الجاسوسـية، ولاكتسـاب خبرات العمل الخطـير الذي يحتاجه كعميل.

فـ "بوشـاط" التاجـر، كان رئيس إحدى هذه الخلايا السـرّية التي تعمل لصالح إسرائيل، فأوكلَ أول المهام إلى تلميذه "عيزرا" لجمع المعلومات عن فقراء اليهود في الأحياء الشـعبية، أموالهم المعيشـية، أعدادهم، حِرفهم، تعليمهم، وأخيرا اتجاهات الرأي عندهم في مسـألة الهجرة، وردود فعلهم بعد أحداث 1941م، "فرهـود بغداد". فكان "عيزرا" في بداياتـه في هذه المهام يتردد على القبور لتصيّد الأخبار من أفواه المكلومين.

وكانت "روان" هي ابنة "بوشا"، هي من رائعات الحياة جميعها، حيـثُ تجمعـت كل الأنوثـة في وجهها الرائق الصافي السـاحر، بعينيها النجلاوين، فمسّـت فؤاده حتـى النُخاع، ولكنها كانت

أذكى منه، تدحره بطريقتها فتجعل شراييـنه تنبض بالعشق في تحنــان وانتعاش، فـكان كالتلميذ البليد الغـبي الذي يجهل مـا يفعله لإرضائها، وهي تسـتغل بلادتـه فتحرقه من بعيد، تلدغـه بنارها ثـم تبتعد، وتحركـه بإغرائها القاسـي، حتى جعلتـه آلة بيدها وبيد والدها، وأصبـح يُدمنها ولكن لم تكن له الجرأة بالكشـف عن ذلـك جهارًا، كانت تُـدرك بأنها محته، فرضَيت لذلك أشـدّ الرضا وهي تتحكم ببليد عاشق، يُنفّذ ولا يناقش المهمات، وفي نفس اللحظة كانَ ذكيًا يُعتمد عليه في كلّ شيء، ويعشق قضيته كيهودي.

في البداية كان "بوشـاط" يعلم بفراسـته وذكائـه، بأنّ تلميذه لا يملك سـوى 500 دينار جمعها من خلال العمليات الصغيرة الـتي يقوم بها لصـالح المنظمة، فكان يدفع لـــ "عيزرا" نقودًا إضافيـة لكي يسـتمتع برفاهية الحيـاة، ولاسـيما وأن الأخير كان يعشـق السـهر والخمر والليالـي الحمراء، وكان يسـتكتبه صكًا عن كلّ مبلـغ دّين يطلبه تلميذه، فأحكم بذلك اليهودي الخبير خنقه بشـّدة، وذات يـوم عرض على تلميـذه في إقناع من يعرفهم من اليهود للهجرة إلى إسـرائيل، فالدولة اليهودية كانـت عـبر إذاعاتها تبثّ ليل نهار أحقية يهـود العالم في أرض

المعاد، وهو كيهودي كان يتمنى لو يسافر إليها فقط ليراها.
كانت الإذاعات في تلك الأيام غير المستقرة تصف إسرائيل بأنها دولة الإرهاب والمذابح، وتُصّور الحياة في هذه الدولة الجديدة كأنها جحيم، وتنشر الكثير من الحوادث المفجعة بحق العرب، بينما كانت إسرائيل الحديثة تواجه كلّ ذلك بالرفض والاستنكار متهمةً الإعلام العربي بالكذب، وبأنه يدّعي ويتحايل لخداع اليهود ليحجموا عن الهجرة إلى وطنهم الأم، حتى أصبحت الحرب الدعائية دائمًا في حالة غليان ولم يتوقف، أمّا إيمان "عيزرا" في بدايته عن الوطن "إسرائيل" فكان مزعزعًا، فهو لم يعرف غير العراق وطنًا له، الذي يضم عشرات الآلاف من اليهود في بلده، حيثُ كانوا يتمتعون بالحرية والأمان، غير أنّ "بوشاط" استطاع أن يخترق بذكائه كل تلك الشكوك، فأخبره يومًا "يا بني لما لا تكون إسرائيل صادقة فيما تدعيه؟ إن اليهود عاشوا على أرض فلسطين منذ آلاف السنين، ولهم حقٌ تاريخي في فلسطين.. فلماذا يحاربهم العرب إذن؟"
فكان السبب الرئيسي الذي ساعد "عيزرا" في مهمته أنه استغل سوء الأحوال المعيشية لبعض اليهود الذين رأوا بدورهم بأن في

الهجـرة مخرجًا لهم من أزمتهم، حيثُ كانوا يرتابون من قدرة الجيش الإسـرائيلي على مواجهة العرب، وتراجعوا في البداية عن فكرة الهجرة، ولكن انتصارات إسـرائيل المتكررة ونجاحهم في الاستيلاء على فلسطين وسكوت العرب كان هو الأهم، كانت بالنسبة لهم أكبر مفاجأة لم يتوقعوها قط، هذا الحدث انتشر بينهم انتشار النار في الهشيم بين اليهود العرب، فزادت ثقتهم بالقـدرة اليهودية، وبهـذا بدأت المخابرات الإسـرائيلية "وهي طبعًا من أنشـأت الدولة الإسـرائيلية" تكثيف جهودها، بزرع عملاء الموسـاد في الدول العربية وخاصـة العراق، وحتى أنهم لم يتردّدوا في قتل اليهود حيثُ كانت تُشـيع بين مواطنيهم أن هـذه الأعمال هي مُدّبرة من قبـل العرب لبّث الرعب في قلوب اليهود.

ففـي صبيحة أحـد الأيام أتذكر جيـدًا عندمـا فوجئ الناس بمقتـل يهودي على يد لصّين، فقامت الدنيا ولم تقعد حينها، حتى انتشـر الخبر بسرعة بين المواطنين، في هذه الأثناء انتهز "عيزرا" هذا الحدث فأخذ يهيئ المناخ النفسـي لإيقاظ حماسة اليهـود، فانفعـل الأخـير بغريزتـه كيهودي حامـلاً لفيروس الخيانـة، حيث بدأ يُخلص كثيرًا في عمله.. حتى نجح في شـهور

قليلة في تهريب 14 عائلة إلى إيران، ومنها إلى إسرائيل، أما رحلة الهرب فكانت تبدأ من الشمال الشرقي، عندما كان بعض العملاء من الأكراد يقومون بدور رئيسي وفعّال بقيادة المُهرّبين عبر الجبال والسهول والممرات الوعرة بتهريب العائلات إلى الحدود الإيرانية، وكان يتعهدهم حرس الحدود الإيرانيين وضُباط الموساد.

في هذه الفترة تربّع "عيزرا" على عرش الرخاء والثروة، يمتصّ النعيم مصًّا، ويخوض بحور اللّذات سباحة وغرقًا بين أحضان النساء، ومن ثمّ واتته الفرصة للسفر إلى بريطانيا وحصل بسهولة على الجنسية البريطانية، فتم تسهيل أعماله والتنقل من بلد إلى بلد، وممّا زاد من قوته أنه في إحدى المرّات، وفي إحدى المقاهي ببلجيكا جاءه رجل غامض يُدعى "قاسم" منح "عيزرا" نقودًا وطلب منه أن يتلاقيا بعد أسبوع في بغداد.

كان الرجل الغامض هو أحد عملاء الموساد في العراق، مهمته تدريب الجواسيس الجدد، وحصد المعلومات من خلالهم وتجميعها والربط بين الشبكات، "هذه المعلومات كانت موجودة ضمن رسائل والدي في صندوقه، استطعتُ الاطلاع عليها ورقة ورقة عندما كنت أبحثُ صدفة عن سندات ملكية

مـا ورثته عـن والدي ووالدتي لكي أسـجّل وكالة عامة لأختي على جميع ما أملك لأسـباب تخصـني، وكانت هذه أول خطوة لهدم مسـتقبلي، حيثُ غدرت بي وأخذت كلّ شيء بلعبة منها ومـن أحد أزواجها، بعد أن سـافرتُ إلى لندن فـترة من الزمن" وتأخرت في العودة.

توالـت لقـاءات الرجلـين في أماكن مختلفـة ببغـداد، وأُخضعَ "عيزرا" لدورات مكثفة في فنون التجسس، وفي غضون مرحلة قصيرة تعلّم العميل الجديد الكثير، وأقبل على مهنته بشـغفٍ بالغ، حيثُ تخرّج من مدرسة الموساد جاسوسًا مدّربًا ملّمًا بهذا العالم المثير العجيب الكبير، "عالم الجاسوسية".

قضـى أغلب جهـوده في هـذه المرحلـة لتهريب يهـود العراق، وخـلال عامـين من الزمـن اسـتطاع تهريب أكثـر من 600 عائلة يهودية منهم إلى عبّدان عبر شّـط العرب، سالكًا أساليب شـيطانية أنجحت مهمته، بالرغم من التواجد الأمني المُشدّد.. حتى سـطعَ نجمـه فأصبح بذلك أمهر جواسـيس الموسـاد في "بغداد".

كانـت مندوب الاتصال وقتهـا "روان" قبـل أن تصبح مناهل، والـتي كانت تتلقى أوامرها من رؤسـائها في الموسـاد، فكانت في

بداية العشـرينات مـن عمرها، أسـلوبها مع الضحيـة عندما تخاطبـه لا يرحـم، كلماتها الهامسـة في أذنه لهـا تأثير حفري مدغدغ، تكسـر ثنايا المـخ، تُخدر الضحية فـلا ترغب جفناه في الارتفـاع، وتُسـفلت طريق قلبه الملتوية حتى تُملّسـه، فهي عاصفة تخمش قمّة الجبال.

فتكت بأنوثتها بأهم الشـخصيات السياسـية في العـراق، تُرى لو كانت في حُضن الملك ماذا كانت سـتفعل به؟ تخيّل فقط أن تحين لحظـة الالتحام الجسـدي بين الملك ولحـم أنثوي طري كيف سيخرج سليمًا بعد الملحمة اللحمية الشرسة، بعد خدوش الطَّرق على الحديد.

رأت "روان" في "عيـزرا" أنـه يكاد أن يصـل إلى درجة من الثقة بنفسه إلى حدّ الغرور، فكان من الواجب أن تُعلم الموساد بذلك، فـدرس الموسـاد بـدوره في البداية خطة سـحب "عيـزرا" من العمل، أو أن تنبهه لخطورة ذلك من خلال الرسـائل، ولاسيما أنه أتقن عمله وأجاده بحرفية عظيمة، فعملية سحب العميل تخضع لعمليات معقدّة، ومن أهم أسـبابها ثقة العميل بنفسه إلى حدّ الغرور، مما سـيوقعه في خطأ فادح يكشفه نتيجة هذا الغرور المُخيف، خصوصًا عندما يستخف بقدرات رجال الأمن

في البلد الذي زُرع فيه,تم تنبيهه بشّدة، إذ لابدّ في هذه الفترة من استغلاله ومن ثمّ استهلاكه، فالمنتظر منه لا يزال آتيًا.

لم يمِض وقت طويل حتى منحهُ الموساد رتبة عسكرية في الجيش الإسرائيلي، ثم إخضاعه لدورات تدريبية جديدة لاستعمال اللاسلكي في الإرسال، وسلّموه بالفعل جهازًا لاسلكيًا متطورًا، حيثُ لا يمكن رصده بأجهزة تتبع الذبذبات التي لم تكن موجودة أصلا في المملكة آنذاك، فوّثق العميل في أهمية دوره لخدمة مصالح إسرائيل في العراق، فطوّر كثيرًا من مهامه التجسسيّة لتشمل جمع التقارير المهمة من الموظفين والضباط ومن الناس العاديين الذين جنّدهم من الشارع العراقي، فأذهل بعمله مرؤوسيه في الموساد لمهارته في البّث اللاسلكي، وأذهلهم أكثر بتغلغله داخل جميع فئات المجتمع العراقي، وبإرساله تقارير غاية في الأهمية عن الاقتصاد والزراعة والسياسة، ثمّ أصبحت معلوماته في "تل أبيب" تُقّيم في الفئة "أ"، والتي تستحق عن جدارة مكافآت مالية ضخمة، اتخموا بها جيوبه.. حتى بدّلت نظام حياته وإنفاقه.

في أثناء كلّ هذا.. تعرّفت "روان" على ضابط مسيحي,يعمل في استخبارات القصر الملكي، فأوقعت بأنوثتها الضابط في

حبائلها، فأوهمته بأنها تحبه، وبأنها أصبحت لا تفكر في الهرب إلى إسرائيل من أجل أن تظّل إلى جانبه.

انزعج الشاب عندما سمع اسم إسرائيل، حتى سارعت إلى شلّ تفكيره، بل ودّمرت عقله، فأسلمت له نفسها، حتى انزلق بين أحضانها وأخذ يحتسي الخمر نشوان، وبشكل غير طبيعي، فأصبح يُسرّب لها معلومات خطيرة دون أن يشعر، معلومات نارية في تفاصيلها عن خطط الاستخبارات وعمليات الجيش العراقي في البلاد.

كان مسلوب الإرادة، وكانت تعامله كخرقة بالية مستعملة.. حتى أصبح غارقًا في النشوة، حيث مستقبل مجهول كان يسبح من حوله وبأنياب بارزة.

ففي غيبة الإدراك أعلن لها بشكل كامل وصريح بأنه معها في كلّ مكان، حتى ولو كان في إسرائيل. فتأكدّت بذلك من إتمام السيطرة عليه، حتى طلبت منه دليل الوفاء، فتدفقت إليها الوثائق والتقارير من أرشيف وزارة الدفاع والقصر الملكي السرّي، فكلّما يُسلّمها عشرات الوثائق المهمة والخطيرة كانت هيّ تدّعي بسخرية تفاهات ما يقدّمه لها.

بعد فوات الأوان أدرك الضابط الشاب بأنه وقع لأذنيه في بئر

الخيانة، فلم يستطع التراجع بسبب ما كانت تقدمه له الفاتنة من نشوات يصعب التراجع عنها، وكانت مستلذة بطريقة عجيبة باللعبة.. وقتلته بسلاح أنوثتها، كانت لعبة رائعة ومثيرة ترضي غرورها، فانساق معها في الطريق وقد استهواه العمل واستغرقه.. حتى جاء اليوم الذي أصبح ورقة محروقة يجب التخلص منها في أقرب فرصة.. فكانت ليلة القبض عليه بعد أن تم الإبلاغ عنه، وبأدلة دامغة تثبت خيانته للوطن فأعدم بعد محاكمة عسكرية.

ثم انتقلت إلى اللعبة الثانية!

كانت هذه المرّة مع شاب وسيم يعمل في أمن مطار بغداد.

حيثُ كان مغرورًا ببزته الرّسمية وبالسيارة الحكومية التي تقلّه إلى مكان عمله.. فأشهرت أسلحتها الأنثوية الفتّاكة في وجهه، فاستسلم بلا مقاومة، فهيأت له المناخ الصحّي للسقوط، حتى تدّفقت من خلاله المعلومات الأكثر سرّية عن مطار بغداد.

فكانت هذه المعلومات تحمل في طيّاتها عدد طائرات الشحن التي تحمل المعدّات العسكرية، والتي تُفرغها بداخل حظائرها، خاصّة التي تخضع لإجراءات أمنية مشددة، وإعداد الخبراء

السوفييت والتشيك من المتوافدين والمغادرين، والرحلات السرّية لطائرة الملك.

فكانت هذه المعلومات الساخنة تبثّها هي حتى أثارت شهية الإسرائيليين.. فاندهش الموساد بأن "عيزرا" و "روان" يملكان قلبًا من فولاذ، لم يقهرهما خوف أو حتى ارتجفا إذا ما قرأ الاثنان عن سقوط جواسيس للموساد أو إعدامهم، كانا يستفيدان من الأخطاء التي أدّت إلى سقوط الجواسيس في فخّ رجال السلطة العراقية.. ويتجنبانه، فتضاعفت الخبرة لديهما، بينما كانت التحذيرات تأمرهما بألا يقرآ تلك الأخبار الكاذبة التي يرّوجها العراقيون.

استأجر الموساد "فيلا" من طابقين في إحدى ضواحي بغداد الراقية، وسكنت "روان" فيها قبل أن يمنحها الموساد رتبة ملازم في جيش الدفاع الإسرائيلي تقديرًا لتعاونها المشرف والإخلاص للقضية اليهودية، حتى تحوّل المنزل بعد فترة إلى غرفة عمليات خطيرة، حيثُ كانت تتم فيه عملية السيطرة على "بغداد"، وتجنيد أكثر من 30 شخصًا من الرتب العسكرية الكبيرة، بفضل لغة الجسد والإثارة، حتى تدّفقت بواسطتهم أسرار العراق أولًا بأول إلى "إسرائيل".

★★★

(10)

فتحت عيني قبل أن تتسلّل خيوط الضوء الشاحب الأولى من خصاص النافذة، رمقتُ الساعة الجدارية، كانت تُشير إلى الخامسة فجرًا، عُدتُ إلى وعيي بعد حلم أسطوري رائع لا يتكرر إلا بمعجزة، قبل أن يشوب الحلم كابوس أفريقي أسود.

"مناهل" كانت في حضني تموء مثل القطة، كُنّا في معركة اعتداءات ملتوية وتفلتات شبحية، بطيئة، كانت تتملّص بجسد ابن عرس الزلق والمرن، تفتت بركبتيها كليتّي، عضّاتها المُزّيفة وحلحلة جسدها قليلا حتى انحطّ الصراع إلى تلاعب متوافق، وكأنها في شيطنة أخرى، كعاشق ضارٍ، توحشت عندما شاهدتُ النهدين المنتصبين، والفخذين اللدنين وبطنها الدرقي، كانت تتولى القيادة بموهبتها غير المعقولة، ونهمها الغنائي، في ذلك الفردوس الكارثي.

وفي توقفات الراحة من الدوامة الهذيانية قطعت علينا تلك الشهوة الربّانية صوت امرأة زنجية ضخمة، ذات عظام متينة، وردف مهرة، وثديين حيويين كبطيختين، ورأس مدّور تام،

مدرع بخوذة قاسية من شعر سلكي، وكأنها خوذة فارس من العصور الوسطى.. وبصوتها الذي يشبه زئير الأسد صاحت "كفاكما لَعبًا وإلاّ...." تلك السوداء بنهديها الشبيهين بضرع كلبة لا أدري أين صادفتها؟! هل تراني ضاجعتها وأنا في إحدى جولاتي إلى أفريقيا حيثُ كنت مخمورًا؟ لا أتذكر فسيئاتي لا حصر لها في أرض الله الواسعة، أيقظتني بنت الكلب من الحلم مع فتاة لم أبلغ معها حدّ الاكتفاء من الشبق بعد.

طلبتُ من الخادمة أن تُحضّر الفطور وأن تُبلّغَ أختي حال أكمال الإفطار الصباحي، فأخبرتني بأنها لم تعد إلى البيت منذ البارحة، حيثُ أخبرت الخادمة هاتفيًا بأنها في حفلة رائعة مع صديقاتها، وستتأخر وربما ستبيت مع إحدى رفيقاتها، لم أعلّق بشيء سوى أنني كنت أعرف أنها على علاقة مع أحد الشباب الطائشين، وكنتُ قلقًا جدًّا في نفس الوقت على الممتلكات التي وضعت يدها عليها، حتى هذا القصر الذي نعيش فيه، والذي ملكته بعدما تنازل الجميع عنه لي، تناولت الفطور وخرجتُ قاصدًا مكتب الجوازات، قابلت المدير وكان كريمًا معي، حتى أنه أكرمني كلّ الكرم في مكتبه وقدّم لي الشاي مرتين، وأعطاني ملف "مناهل" وتصفحته جيدًا ورأيت صورتها في

الملف فاطمأنّ قلبي.. بعد أن قاربت الزيارة على الانتهاء أخذتُ وعـدًا من الضابـط أن الحجز علـى جوازها والأملاك سـيُرفع بعد أن توافق الجهات العليا على الطلب، وأنها تسـتطيع العودة لممارسة حياتها الطبيعية من اليوم وبدون قلق من منع السفر الذي سُيلغى قريبًا، غادرتُ المكتب والسعادة تغمرني من رأسي إلى أخمـص قدمي، فغدًا الخميس.. الخميس، موعد لقائي بها، وسأخبرها ببطولتي الرجولية معها.

★★★

في مسـاء ذلك الخميس الأغـبر لقيت مع "لطيفـة" أختي، كان برفقتها شـاب يصغرها بعدة سـنوات، قالت إنه زوجها ! وكأنّ السماء انطبقت عليّ من شـدّة المفاجأة، متى تزوجتِ؟ سألتها حائـرًا.. فأخبرتـني أن الـزواج تم ليلـة البارحة ! لم يسـعني إلا السـكوت عـن جنونها، فخرجت باكرًا قبـل أن يحين موعد عشـائي مع "مناهل" إلى المقهى لكي لا أرتكب جريمة قتل بحقّ تلك المجنونة.

شُـرب القهوة في المقهى روتـين اعتدت عليه لسـنوات طويلة، فاحتسـاء القهـوة التركية مـع الناس يبعث في جسـدي الحياة علـى الأقل، أنسـى جنون أخـتي ومغامراتها الطائشـة، حيثُ

أراقب بخلسة، وأنا جالس أقرأ الجريدة مع احتساء القهوة، التقاء العيون في المقهى وسط الهمسات، ومنظر السيدات وهنّ يأكلن بهدوء وأخريات يأكلن بنهم، وارتطام الشوكات والملاعق وتبادل نظرات مع أنثى تحتسي القهوة بهدوء مثلي، وغالبًا ما كنتُ أميل لاصطيادهن لولا مزاجي اليوم غير الملائم حتى لشرب قهوتي المفضّلة، فلولا أن موعدي مع "مناهل" كان قد اقترب لذهبتُ للنوم في أحد الفنادق التي كنتُ اعتاد ارتيادها مع إحداهن، فالوحدة أحيانًا كنز لا يُفنى.

أنهيت القهوة ثم دفعتُ الحساب، ومن ثمّ انطلقتُ إلى مكان الموعد، فبعد نصف ساعة وصلت إلى فيلا الغزالة.. فيلا من طابقين، تحمل واجهتها نقوشًا مغربية رائعة، أما الجدران فتغطيها فروع متسلقة من شجرة اللبلاب، بشكلٍ يسحر العين والقلب، ويأخذ العقل بجمال المكان، اقتربت من باب الفيلا فوجدت الحارس يسقي الزهور، لمحني من بعيد وجاء راكضًا يُرحب بي، "أستاذ شوقي"السيدة "مناهل" في انتظارك.

تعجبت كيف عرفني! ولكني ترّفعتُ عن السؤال ولم أسأله كيف، فتح البوابة ودخلت بهدوء حتى قادني إلى الباب الرئيسي للفيلا، صعدتُ أربع درجات من المرمر وانتظرتُ

الحارس ليدخل أمامي لُيخبر السيدة غزالة بمقدمي.
خرجت الحسناء وكانت كملاك الله على الأرض، بوجهٍ مشرق باسم، قالت مرحبّة:
-نورت "شوقي بيك".. أنا وأخي في انتظارك.
تهاوت كلماتي تحت حذائي، وكادت ابتسامتي تضيع مني وتهرب بعيدة عني.. ولكني سيطرتُ على نفسي وقلت:
-لم تخبريني بأنه سيحضر!
- لقد جاء فجأة وسمع عنك ويريد الحديث معك، فهو معجب بشخصيتك.
لم أعلق.
دلفتُ وراءها إلى الداخل، ثم بعد الممر الواسع دخلنا إلى صالون كبير مصمّم على الطريقة الإفرنجية، وكأنه قصر ملك فرنسا لما يحمله من نقوش ولوحات تملأ الجدران، عُلّقت بطريقة محترفة ومتناسقة مع ألوان وديكور الصالة الزاهية، كان أخوها جالسًا على الكنبة الواسعة ذات النقوش الذهبية، قام من مجلسه ليُسلّم عليَّ.. صافحته ثم قادني إلى الجلوس بجواره، بينما اختفت حبيبة الروح لكي تُعد لنا شيئًا نشربه مع هذا الثور البغيض.

كنتُ أمسح جسدها البض من وراء ملابسها بعيني وهي تغادر الصالة، التصقت بذاكرتي حركاتها وهي تمسح شفتيها بلسانها كالقطة أثناء استقبالها لي، مسحتُ مؤخرتها بعدسة عينيّ لأرى ردفين لم أرَ مثلهما من قبل، كانت تتفاخر بموائها المسائي وهي تتكلّم بأنوثة طاغية، وكنتُ في مرحلة القفز إلى مواقع الدفاع لكي أتقيّ شرّ حُسنها فقلبي لم يعد يحتمل دلالها، بابتسامتها أبرزت غمازتين قاتلتين جعلت مني رجلًا مُحنّطًا، فقد نجحتْ في بعثرة خلايا وجهي، ما أحلاها وما أشهاها وأنا أشتم ريقها في زفير خرج من رئتيها وهي تصافحني عند الباب، حتى قررتُ أن أحسم أمري وأرقص على سلّمها العريق.

★★★

جلسنا على مائدة العشاء.. في جوٍ يملؤهُ الهيبة، وكان الرجل، رغم انزعاجي منه، يحمل كاريزما قوية، يجعلك تستمع إلى حديثه حتى نهايته.. فقوة كلماته وانتقائه للجمل الجميلة والبليغة يكفيان للتأثير على من أمامه، ورغم ذلك أمقته بسبب حضوره المزعج، كنّا نأكل بهدوء وهي تجلس عن يميني وهو أمامنا والنبيذ المتفق عليه على طاولة العشاء أيضًا، وكانت ترمقني بين لحظة وأخرى بنظرات تكفي أن تأسرني

وتذبحـني، لولا حضور هذا المسـخ اللزج لكنـتُ بخير، فقد كان يدفعني أن أسـتغرق في لجج الأفكار وعن سـبب وجوده معنا. وكان الطعام قد أُحضر ووضع في الأطباق، وكنت مسـتغرقًا في الالتقام والمضغ، بينما كان أمامي صدر دجاجة مشوية تحيّرت كيـف ألتقمه أمامهما، لأنني أحب أن آكل باليدين، تعلمت ذلك عندمـا كنت أزور مع والدي جنوب العراق في زيارات للعشـائر آنذاك، فجرّبت اليدين في الأكل لأنها تُعطي لذّة أكبر من الشوكة والسكين.. هذا النوع من الأكل المشوي يُضعفني، حتى استغللت انشـغالهما بالأكل لألتقم الصدر على طريقتي، ولحسـن الحظ لم يبديـا أي حركة تكشـف عن انزعاجهما مـن التقام اللقمة باليد.. غير أنّ اللّزج باغتني بسؤاله:

-"شوقي بيك" ما هو عملك الآن؟

هممـتُ أن أجاوبـه وفمـي مملوء، فاسـتمهلته بضـم أصابعي الثلاثة، ريثما أبلع ما في فمّي، ابتسما في ودٍّ كبير ولم يُحرجاني، بـل بالعكس شـعرتُ معهمـا بالاطمئنان أكثر من أي شـخص قابلته في حياتي.

-كنتُ قبل مقتل والدي أعملُ في العلاقات العامّة للقصر الملكي وأيضًا كنتُ مسـئولا عن أقسام كثيرة أثناء التدّرج الوظيفي في

ذلـك الوقت ولكن بعد أن فقدتُ والـدي جاء قرار مفاجئ من مصادر أقوى من الحكومة لأعمل موظفًا بسيطًا في الأرشيف.

- يؤسفني سماع ذلك، "قالها بوجوم".

فـازداد اطمئنانـي لـه أكثـر، فهو يمتلـك قابلية التحـدّث إلى الأشـخاص ويسـمع آراءهم ويمتـص قلقهم، ويزيدك شـعورًا بالقوة والطموح والأمل مجددًا بكلماته وهدوئه.

دار بيننـا حديـث طويل ونحن علـى مائدة العشـاء، وبعد أن أكملنا الأكل، جلسـنا في الصالة ننتظر القهوة، ثم فاجأني وبلا مقدمات بعرض لم أكن أنتظره:

-ماذا لو ذهبت إلى المكتب لترى أمر ترقيتك قد صدر إلى مدير عام للدعاية في القصر الملكي بدلًا من خليل إبراهيم؟

قلتُ بتعجب: أكون بدلًا من خليل إبراهيم"؟

★★★

القهـوة المسـائية جعلتني أطـير إلى أجواء خيالية بعد العشـاء الرائـع.. بعيدًا عن المشـاحنات مع أختي، حيـثُ جاءت القهوة بطعم الهيل الذي أعشـقه.. وكنّا ما نزال جالسين نتحدث عن موضوع الترقية التي شلّت أفكاري.. فأكمل الرجل كلامه:

-كمـا تعلم فإنه الآن تجـري اتفاقية توقيع "حلـف بغداد"، في

هـذه الظـروف السـائدة للحرب البـاردة بين المملكـة وجهات أخرى، وسـتكون بريطانيا والعراق وتركيا وإيران وباكسـتان ضمن الحلف، وهي فكرة أمريكا.. "نوري السعيد" يسعى جاهدًا لإنجـاز هذا الحلف.. وسنسـتغل هذه الظـروف لكي تأخذ أنت مكانك كالسابق وتعود كرجل دولة في أبهى صورة.

كنـتُ قد تجمدت من أثـر ما أسمعه، ذاهلًا، وبـلا أي مقدمات أخرجت مسـبحتي الثمينة مـن جيبي بعد أن أعـدتُ فنجان القهـوة في طبقـه على الخوان، وبـدأت أسـبّح لا إراديًا وكأنني أستنطقها أسرار الماضي.

كنـتُ أصغي باهتمام لكلامه بعد أن تأكـدت من صدقه، فقال بعد أن أرتشف القهوة:

-لدي علاقات كثيرة في الدولة وأنا صاحب أكبر شركات استيراد وتصدير.. أغلب المسـئولين في الدولة هم من أقرب أصدقائي، لقـد أخبرتـني "مناهل" عنـك وعـن ظروفك وكيـف وقفت بجانبها في أشـّد أيامها، واليـوم قررت أن أقف بجانبك وأن أعيد لك أمجادك التي سُـلبت منك كابن للباشـا والـذي كان له دورٌ كبـيرٌ في بناء المملكـة العراقية، أنا أملك المـال، القوة و الرجال وسـأمدّك بـكل أنواع المسـاعدة، سـتعوض كل مـا فقدته بل

وأكثر، "خليل إبراهيم" سوف يشغل منصب سكرتير لمكتب حلف بغداد، والأخير كما تعلم قد برأته محكمة المهداوي من التُهم التي وجّهت إليه عندما كان يدير عدة مناصب في الدولة، والآن حان وقت رجوعك إلى الدولة مرفوع الرأس، وإذا وافقت على ما أقوله لك فسوف تنال أعلى المراتب.

أجبته مغتبطًا وبلا تفكير:

-وكيف لا، " وأنا لا أكاد أصدّق ما أسمع".

- عظيم "شوقي بيك، من الغد أنت في أجازة، وبعد أسبوع تزور مكتبك القديم لتتسلم أمر الترقية الذي وعدتك به.

★★★

(11)

بعد انقضاء الأجازة ذهبتُ إلى المكتب كما أمرني أن أفعل، برقية الترقية كانت تنتظرني على المكتب في مظروف مغلق، بعد أن فتحته قرأت الأمر الصادر من الديوان الملكي بتسلّم منصبي من اليوم، وبعد أن علم الموظفون بذلك انهالوا عليّ بالتهاني يباركون لي المنصب الجديد.

ولم تمر نصف ساعة حتى تلقيت اتصالاً من أحد المسئولين يبارك لي على الترقية، ومن ثمّ أخبرني بأنّ السائق سيمّر عليَّ لكي يأخذني إلى المكان الجديد الذي سأباشر فيه العمل، بعد ساعتين كنتُ قد وصلت المكان الجديد وسلّم عليَّ الموظفون وعبّروا عن فرحهم بأمر الترقية، رافقني مدير المكتب إلى مكاني الجديد الذي سأستلمه وما إن دخلته حتى ذهلت من جمال المكان.. كان مفروشًا كلّه بالسجّاد الثمين، وكان نقش السّجاد يلاءم ألوان الأطالس المكسوة بها الجدران، آنستُ في المكان هدوءًا كبيرًا، وكأنّ المكان خالٍ من الناس، وكانت خارطة المملكة العراقية الموجودة في الإطار المعلّق بالجدار متقنة

الصُنع، ألوانها البارزة في الرسم يمثل حال طبيعة البلد، كانت هناك غرفة أخرى في الجانب الآخر يفصلها باب فقط، تقدّمت نحو الباب وفتحته فرأيت قاعة واسعة لم أرَ مثلها من قبل، في الرياش الثمين فوق السجاد الجميل، وفيها المناضد فوقها آنية البذخ، كالساعات المذهبة، والتماثيل المزخرفة، وجدران القاعة كانت مكسوة بالأطلس الأحمر المعرّق بالذهب.

وفي السقف ثريات كبيرة قد أنيرت مصابيحها، أما الجدران فكانت معلقة عليها خرائط وصور، أهمها صورة الملك المُبجّل، مُجسّمة في غاية الإتقان، الباب والحائط قطعة واحدة، بالضبط كما في القبو الذي تحت القصر الذي كنتُ أملكه قبل بيعه، كان القبو عبارة عن صالة وخلفها غرفة سرّية تحتوي على خزانة فيها أوراق تخص المملكة أيام الملك "غازي" أخفاها والدي حرصًا منه على أهمية المستندات التي يملكها عنده بالإضافة إلى العديد من الخرائط والمستندات التي لم تخرج إلى النور بعد، عندما نظرتُ في أطراف القاعة لم أرَ بابًا آخر، كانت القاعة أساسًا للاستراحة واللقاءات المهمة، وهناك مقعد بجانب منضدة عليها بعض الكتب، قلبت صفحات الكتب قليلًا فلم أجد أي شيء يجلب انتباهي، ثمّ تركتُ المكان وتوجهّت

نحـو الباب، ألقيتُ نظرة أخيرة للقاعـة، ومن ثم فتحت الباب ودلفت إلى مكتبي.

مع أنّ هناك فترات قد انقضت ولكنّ وقعها في نفسي كان شديدًا وقاسـيًا إلا أنه قـد مضى فخف وهـان، حتى أمسـت الأحداث ذكريات شـاحبة تسـتثير حزنًـا رقيقًا غـير ذي خطورة على صحـتي، كما في الماضـي، وأحيانًا كثيرة أفكـر في الحب كعادتي، الحب الذي يسـترق خطـاه إلى قلوبنا في حياء وتـردد، وأحيانًا إلى حدّ التحدّي والاسـتبداد، وكأنّ الحب قـد اختلط بالحركة الكونية التي ندوخ في تركيباتها المعقّدة.

كانت في عقلي تلك اللحظة، مرّت فاستنزفتني مجددًا، تهفو في فؤادي في معاكسـة غير مفهومة، ووجـدتُ في هذه اللحظة بأنّ عواطفي الظامئة قطب تنجذب نحوها رغم مرور سنين طوال، وكأنّ عشـقها نوع من القابلية أكثر منـه تعلقًا بامرأة عادية، فحينما كنتُ مقيمًا في لندن تلقتني من الغربة الموحشـة التي تتوالد فيها الأحزان، كما تتوالد الحشرات في البركة الآسنة.

في خضّـم هذه الأفكار المعقدّة طرق السـكرتير الباب، ثم دخل عليّ ليخبرني بأنّ سـيدة مرموقـة تنتظر إذنًا بالدخول وهي الآن جالسـة في التشريفات، فأذنت له بإدخالها ثم تلقفتُ ملفًا

ودفنتُ رأسي فيه متظاهرًا بالانشغال، حتى ترامى إلى سمعي وقع خطوات موسيقية صاحبتها تغريدة الصباح بصوتٍ دافئ:

-صباح الخير أستاذ.

ما إن رفعت رأسي حتى ذبت كالصابونة التي لم تبقَ منها سوى الرغوة.

كانت "سوسن" خانم التي كنتُ أفكر بها قبل قليل..

دخلت بثدي ناهد وعجيزة مدملجة وعينيها المكحلتين، فكل أصول الدلال وأسرار الجمال كامنٌ في أنوثتها، تنهد ثدياها كما عهدتهما، إذ لم يتغير شيء في تكوينهما منذ أن فارقتها، تقدّمت هي ونهضتُ أنا من خلف مكتبي متجهًا صوبها أحييها بعبارات لم أعرف كيف خطرت على بالي، تصافحنا وأنا بين مصدّق ومكذّب، هل أنا في حُلم؟ هل هي فعلًا "سوسن" خانم؟ ثمّ أشرت لها بيدي بالتفضل والجلوس، وبينما هي تتقدّم لتجلس على الكرسي، كنت أنا أراقب الردفين والصدر البارز، تلك الرشيقة القوام ذات وجه عصفوري حالم بأنفها الطويل قليلاً وجسد مضلع وتتمتع بانسيابية رهيبة، سبحان الله خالق الإناث.

بعد دقائق من الصمت الذي غلّفنا بعذوبته سألتني برقة أنثى عاتية في الجمال:

-ما أخبارك؟

- كما ترين أشغل منصبًا جديدًا في الدولة، وسعيد جدًّا برؤيتك في مكتبي.. لقد مضت أعوام ولم نلتق، كيف اهتديتِ إلى مكاني؟أتعرفين كم بحثتُ عنك ولم أجدك؟

- أنت شخصية معروفة بالعراق سواءً كنتَ هنا أو في مكان آخر، فـ"شوقي بيك" ابن الباشا" غني عن التعريف.

- تنطق شواهد كثيرة من أكون وابن من أنا، وبلا فخر، قبل أن يكون تأريخنا من تُحف العهود الغابرة كما يقولون بعض المعارضين لوالدي، ولكن لابدّ من أن تتألق أمجاد عائلتنا المعزية كالكوكب الدري.

مع أنّ أمجاد عائلتي بعد قيام الملكية قد اندثر، وعاشت شخصياتها في عزلة عما يحدق به من مسارب الدنيا، إلا أنني كوني أحد أفراد هذه العائلة التاريخية أضج حياتي الخاصة، حيثُ تتصل في أعماق جذوري الحياة الشاملة، واحتفظ إلى ذلك الوقت بقدرٍ من أسرار العالم المنطوي.

★★★

(12)
سوسن خانم

عندما كنتُ في بداية الثلاثينات سافرتُ إلى لندن بغية اكتساب الخبرة في عدّة مجالات وأهمها الحياة، فأتطلّع إلى تكوين الحياة الأوروبية وإلى حياة الناس، ومجريات الأحداث السياسية وحقائقها والخوض في أسرارها، ولكن بسبب حبّي للنساء والخمر والمقامرة خسرت كلّ شيء.. فكادت نهايتي أن تكون على يد فضيحة من نوع لا يرحم، حيثُ تعرفت في أحد الملاهي الليلية على امرأة في العشرينات، وهي أم لطفلة من أب جزائري في السابعة من عمرها.. كانت امرأة صعبة التعامل مع الشباب العربي لأنها تُدرك ألاعيبهم وعدم جدّيتهم في الاتفاقيات الجنسية التجارية، و لرّبما تختلف قليلاً مع الأغنياء العرب بعد أن تدرسهم جيدًا في جلسة قصيرة في البار لتتعرف على طبيعتهم.. فمنهم من كانَ شاذًا، ومنهم من كان يُفضّل أن تضربه المرأة على مؤخرته أثناء الجنس، ومنهم من يميلون إلى الضرب والعنف والتلذذ بمشاهدة المرأة وهي تنزف

من شـدة الركلات، ومنهم من كان يتمتع برؤية زوجته معها، إلى آخر الأمور التي لا تخطر على البال.

وكانـت تعشـق العمـل مـع الأوربيين لأنهـم يدفعون حسـب الاتفاق المُبرم بـين الطرفين.. ولا يميلون إلى أسـلوب التعنيف أثناء المعاشـرة.. تعرفت عليها صدفة وهي لبنانية تُطلق على نفسـها "نونة" الحُرّة، فأخذتْ تُقبّل باطن كفّي وهي سـكرانة وتترجانـي بأن نمارس الجنس في بيتها وعلى فراشـها بالذات، وكنت أرى كيف تشـتعل الشـهوة في عينيها وبـلا خجل، كانت سيارتي الروز رايس الغالية الثمن في جراج الملهى وقد فوجئتْ هي من كونيّ أنا مالكها، صعدنا وقدتُ السيارة إلى حيثُ تسكن هـي، في الطريق أخبرتني بأنها عادةً لا تجلب زبائنها إلى البيت، فهـي تُفضل أن تنهي كلّ شـيء في بيت الزبون، ومن ثمّ ترجع إلى بيتها وتُحاسب صديقتها "ماري" وهي من أصول أفريقية.. تعتـني بطفلتها لقاء أجرٍ زهيد أثنـاء غيابها، ومن ثمّ تقضي وقتها مع ابنتها لكي لا تحسّ الأخيرة بالوحدة، ولكنّها آنست في شخصيتي، حسب قولها، رجلًا أمينًا وطيبًا، ولهذه الأسباب فقد أصرّت على النوم معي وعلى سريرها الخاص بالذات.

بعد أشـهر قليلـة مـن العلاقة أشـهرت المحروسـة توبتها من

المعاصي وبدأت تُصلّي أمامي كل الفروض، تعجبت من هذا التحوّل المفاجئ، فسألتها عن سبب هذا التحول الإيماني على غير موعد مسبق، فأجابت:

- أنا أخطأت وتبت إلى الله العزيز القهار غفّار الذنوب.. وأرجو منك أن تتفهم ذلك بأنّ الحلال هو طريق الخلاص.

- ماذا حلّ بك يا حاجّة نورة؟"سألتها وكلّي تعجب من تحوّلها المفاجئ" !

- قضينا أيامًا في الحرام فلمَ لا نقضيه في الحلال وطلّقني بعدها متى ما شئت.

الحقيقة والحقيقة تُقال، ولو على قطع رقبتي، بأنّ مهاراتها وخبراتها الجنسية وجمالها اللبناني- الألماني- المُشترك، قد جعلاني فعلاً أتم خطوة بالزواج منها، فهي تحمل جمال أمها الألمانية، ولا أرى بأنها تحمل شيئًا من والدها غير قسوته وإلحادهُ.. الذي فاق إلحادي.

لم أتردد في الزواج منها، وفعلاً خطفتها إلى المأذون لأتزوجها، وكانت ليلة من ليالي الأنس الرائعة، بعد أشهر من الزواج وبينما كانت تتمتع بالنظر من البلكونة، وإلى المارّة بالتحديد، وهي عارية الصدر رأيتُ في داخلها راحة غير عادية لم أفهم سببها.

تدخن سيجارتها وبيدها كوب القهوة تتأمل بعيدًا، وفي يوم من الأيام دلفتْ من النافذة الوحيدة في غرفة النوم ومدّت يدها إلى مصراعيها المفتوحين وجذبتهما حتى لم يعد يفرج بينهما إلا مقدار قيراطين من الفراغ، ارتفقت النافذة ملقية ببصرها إلى أسفل البناية، تنتقل به من مكان إلى مكان قائلة بسخرية:

- عندما هربتُ من والدي من ألمانيا وأنا قادمة مع زوجي إلى لندن، اتصلتُ به، كان غاضبا منيّ، وقال بدون استحياء: بأنني عابدة للجنس، ولن أفلح أبدًا كزوجة، وماذا في ذلك؟ كلّ شيء يُعبد له فضائلهُ، والذكر جديرٌ بالعبادة لأنهُ يُسعد النساء بل وحتى الرجال المثليين، سلاحك مثلًا جعلني أسيرة لهواك.

كنتُ راقدًا على السرير عاريًا، ثملًا، فأومأت لها برأسي قائلًا:

- ادخلي إلى الداخل، صدرك العاري بارز من النافذة، وهناك أشخاص سيتطلعون إليكِ من شبابيك الأبنية المجاورة.

لم تلتفت بل رقصّت عجيزتها و أرعشت حواجبها قائلة:

- لا أحد بالجوار في هذه الساعة.

ثم تراجعت فجأة كأنها ملّت من موقفها، ورجعت إلى السرير وألقت بنفسها على جزئي الأسفل تتفحصه، ثم تنهدت قائلة:

- آه لو يحصل ما يدور في بالي لأكتمل المشهد في خيالي على خير.

ثم واصلت:

-أتريد أن أروي لكَ قصة اغتصاب والدي لي ولابنة عميّ.

هنا كادت السماء تنطبق عليَّ، ولم أفهم ما يدور في خُلدها المشئوم، ضحكت هي لكي تُلطّف الجو الذي تعكّر، ثمّ غمزت، وبدأت تنهال بالتقبيل بين فخذي.. ثمّ بدأت تسرد مستلذة استرداد ذكرياتها الماضية مع والدها، وأنا بين وطأة الدهشة وفضول الاستماع.

★★★

في الثُلث الأول من النهار يكتنف المنطقة التي أسكن بها جو رطب بارد ظليل، لا تزورها الشمس إلا حين تُشارف كبد السماءْ فتتخطى الحصار المضروب حوله، خرجتُ لأقضي بعض أعمالي في السفارة العراقية، وزرتُ بعض الأماكن، فأنا بعد أن سلمتُ منزلي إلى صاحبه عشتُ مع هذه الحاجّة المتحررة ومع ابنتها الصغيرة لمدة سنة تقريبًا، وذات يوم أسود كسواد شعرها رجعتُ إلى الشقة، أدخلت المفتاح وأدرته لأفتح الباب فوجدته مغلقًا من الداخل، قلقت عليها وعلى ابنتها، ولكن حدسي كان يُلهمني بأنّ هناك شخصين يتهامسان خلف الباب بقلق، وقررت أن ألقي نظرة لأتأكد من الوسوسة التي

سـيطرت عليّ، وألقيتُ نظرة من فتحة الرسـائل أسفل الباب فوجدتهما يتهامسان، ويا ليتني لم أفعل.

رجـل أسـود ملتحٍ و بملابـس رثّة اتضـح أنه أثيوبـي يدّعي الإسلام وبأنه شيخٌ يلبسُ جلبابًا أبيض اللون ويعتمر عمامة، صاح بالإنجليزية بعدما علم بأني رأيته:

-أيهـا الكافـر أنت لا تحلُ لهـا، اتركهـا وارحل أنـت في النار، في النـاااار، أنا شـيخها وقد جئـتُ لكي أنقذها مـن الفجور الذي أوقعتها فيه، بعدما وقعت في فخك يا ظالم.

صرخـتُ فيه غاضبًـا وضربت الباب بشـدة، أجفلت ضرباتي على الضلفتين، توعدته، ثم تحولا بسرعة إلى غرفة النوم بعد أن سـحبها من ذراعها وهي ترتجف من الخوف، ثم خرجا بعد وقتٍ قصير ووقفا في الممر ليقول بصوتٍ مضطرب:

-سأتصل بالشرطة أيها الكافر.

كان هذا آخر ما تفوّه به ذلك القرد البشـري.. وقبل أن أتحوّل من الباب ألقيتُ كلمتي عليهما ضاحكًا رغمًا عني:

-خذها فهي سرير لكل قوّاد.. ولكن أتعلم أن العراقي لو غضب فاتقِ شرّه أيها القرد البشري، جرّب أن تفتح الباب لتجرّب هذا الغضَب، فشُـبّاك الشُـقة سيشـهد لك بذلك، لم أسمع شيئًا غير

السـكون الذي عـمّ الأجواء، ركلتُ الباب بقـوة وبعدها تحولت عن الباب لا ألوي على شيء من شدّة الصدمة، ثم كانت وجهتي إلى فيلا "سوسن خانم".

★★★

لم تتـزوج بعـد آخر تجربة فاشـلة لها مع خطيبهـا، ووطّنت النفـس علـى الرضـا بحياتها كسـيّدة أعمال عراقيـة يهودية ناجحـة، فهـي سـيدة أعمـال مرموقة ولهـا نشـاطات دولية وعلاقات بمسئولين أوروبيين كبار يحسبون لها مليون حساب. موّلعة بالقهوة والسـجائر، واكتنـاز الذهب والعقارات، لقيتني بكلّ احـترام واهتمام، ورحمة، وأخرجتـني من مصيبتي، بل من مشاكلي وهمومي التي سـبحتُ في مصائبها مرغمًا، أخذتْ بيدي ووظفتني مديرًا لأحد فروع شركاتها في لندن، وتجاوزتُ مصيبـتي بكلّ قـوة ولم ألتفت إلى الوراء أبـدًا، رغم أن "نونة" المتحررة كانت تكثر من البحث عني وتترك رسائل عند بعض أصحـاب المقاهي الـتي التقي فيها عند الصباح أو المسـاء، كانت تتوسّـل راجية أن عمل معها جميلًا بأن أنقذها من شـرّ القرد الذي مسـخ حياتها إلى جحيم، والذي دفـع بابنتها إلى الانتحار للتخلص من عذابها الذي اكتسح حياتها.. لم ألقِ بالًا لاستغاثتها

وأهملتها إلى ما لانهاية، فعوّضت كلّ ما خسرته في فترة قياسية، وشيئًا فشيئًا أصبحتُ عشيق السيدة الرائعة وحبيبها، فكانت لي بمثابة كلّ شـيء، وقررنا الزواج رغم عدم قناعتنا به، لولا إرغـام أبـي ليّ علي العـودة إلى العراق وقد هدّدنـي بعواقب لا تسُر الخاطر إذا رفضت دعوته، فعدتُ مرغمًا.

★★★

كُنّـا جالسـيّن في المكتب يُغلّفنـا حنين الذكريات، والاشـتياق الغائب الحاضر يُداعب نفوسـنا، أتطلع بنهم إلى كلّ شيء فيها، مدهشـا مـن جمالها الـذي لم يتغير، فلـم تتغير فيهـا الأنوثة الراقية المليئة بالثقة والكبرياء رغم تقدّم السن، قالت بصوتٍ ناعـم وقع في أذني موقعًا جميلًا، وإن كان صوتها نقطة ضعف مهمة في جمالها:

- جميلٌ أن أراك مجددًا، فحسب معلوماتي أنك بدأت تُعوّض ما فقدته سـابقًا من الأملاك، مصائب كثيرة مرّت عليك فوقفت كالنخل شامخًا كأي رجل قوي، وآسفة على ما سمعته من أفعال أختكَ لك، فما هي إلا امرأة ستخسر كلّ شيء لاحقًا.

- تأثرت حياتي بشـكل كبير بمشـاكل مرّت ودُفنت مع الوقت وإلى الأبـد في مقـبرة الذكريـات، فهذا المركز الـذي أنا فيه الآن

حصلتُ عليه بذراعي والحمد لله، فهو ليس كما كنتُ أطمح قياسًا للمناصب العُليا التي نلتها سابقًا في الدولة، ولكنها بداية جديدة بعد إعصار من نكسات لا ترحم.

- أنا متأكدة من ذلك، ومتأكدة وواثقة أنك ستكون الرجل المناسب لكلّ المناصب المهمة في الدولة، وتأكد أيضًا بأنني سأدعمك بكل قوتي إذا شِئتَ ذلك طبعًا.

"وهل أرفض هذا من ملكة النساء، قلتُ في نفسي وقد زادت كلماتها في نفسي ثقة على ثقة وسرور.

فغمغمتُ كالضارع:

-هل تقبلين دعوتي لكِ على العشاء؟

عطفت رأسها نحوي وانبسط وجهها الجميل، ثم ابتسمت ابتسامة رقيقة كانت علامة القبول، ومن دون أن تنبس بجملة.. سوى:

-نعم، ولكن عندي أنا.

★★★

بعد أن رأفت العلاقة بيننا، كنت أضطرم حماسة ونشوة، وفي نفس الوقت تملكتني الشجاعة لكي أقدّم لها كلّ الحب، فقد كان حبي لها وعشقي رغبة صادقة وشهوة جائعة، أهوى الثديين

كما أهوى عينيها، وبتُّ ألتمس وراء ذلك النهد حرارة الجسد، كما في السابق، كما التمستُ في عينيها نشوة غامضة سحرتني، فكان عليَّ أن أحافظ على تلك العلاقة من أي سبب يجعلنا نفترق.

ففي ساعة الأصيل المحبوبة، كانت فيها السماء صافية وعميقة الزرقة، والجو مُلطف بدفءٍ طارئ جادت به الطبيعة غب رذاذ أتصل في هذا اليوم كاملاً، مشطتُ شَعري بأناة وكنتُ أتابع أي شعرة نافرة من رأسي.. ولم أسمح لأي شعرة بيضاء من التمرد وخشية من أن تفضحني أمامها، فكنتُ أعالجها بالقلع دون رحمة.

"سوسن".. ما أحلى اسمها.. وكأنني عندما أنطق به أستحلب سُكّرًا وشهدًا.

زرتها في الفيلا التي تملكها في إحدى مناطق بغداد الراقية، وكانت هي كالملاك آية في الجمال، وبدون تردد استوهبتها قُبلة، فانبسطت أساريرها وأصبح وجهها كالطماطم في بهائها، وكأنها كانت تنتظر مني أن أهبها هذه القبلة التي أغدقتُ بها عليها من دون سابق موعد، وتحسسّت ثغرها بعيني في سحر المساء، ولا أخفي بأنني كنتُ أرتعد داخلي بسبب نشوة خاصة،

غمرتني بأنفاسها الملتهبة، فَسالَتْ على نحري وطرفت عينيَّ، ومن ثم قادتني إلى صالة الجلوس وجلست هي بجانبي على الكنبة كالأميرة ترفل بثوب رائع، فأمرتْ الخادمة بتجهيز العشاء، وبعد ساعة حضرت الأطباق ورصَّت الشموع على المائدة الأنيقة وقمنا لكي نتعشى.

جلسنا نتعشى بهدوء وقد كان مساءً تاريخيًا لا يوصف في حضرة الآنسة الأربعينية الأنيقة، نسيت خلالها كلّ النساء حتى "مناهل" رغم أنوثتها الطاغية، ولكن يبقى الحب دائمًا للحبيب الأولي، ولم أمنع نفسي من شرب النبيذ الأحمر حتى الثمالة، وكنتُ أتوقع بأن تكون المحطة القادمة على سريرها كما في السابق، ولكن المحطّة هذه المرّة كان في مكتبها!

لم أفهم لماذا قادتني إلى هناك، حيثُ كان مكتبًا واسعًا وأنيقًا كمكتب الملك، بل وأكثر أناقة، تساءلت، في نفسي، : هل سيربطني بها عمل آخر من جديد؟ جلست هي خلف مكتبها وأنا جالس أمامها وكانت تنظر إليّ نظرات تنمّ عن السعادة والإعجاب، فهمتُ مغزاها فورًا، ولكن لو كانت في هذه اللحظة تشتهيني فلماذا علينا الجلوس في المكتب؟! سؤالٌ دمّر خُلدي.. ولكنها عاجلتني بالجواب الشافي:

-المملكة تواجه مشاكل جُمّة بسبب غباء الملك..

؟-

- وأنت يا "شوقي" وأمثالك الوحيدون الذين باستطاعتكم إنهاء مشاكل المملكة باتحادكم وثورتكم على الظلم والفقر، فجنون الملك لم يعد له رادع من قبل الشعب.

تعجبت، بل وصُدمت من توجهاتها التي لم أعهدها من قبل، فماذا عساني أن أجيب وقد طارت النشعة اللعينة، فما دخلها هي ومشاكل المملكة؟ هي سيدة أعمال يهودية ميسورة ومليونيرة فماذا تملك من حل سياسي لكي تنقذ المملكة من براثن سيطرة الاستعمار؟! أو هكذا كنتُ أظن.

-"مس بيل" هي من أنشأت المملكة ونصبت أول ملك لها، والكل يعلم هذه الحقيقة، وتعرف أيضًا بأن كل السياسيين دُمى بيد الغرب، كما هي الحال مع الدولة العثمانية القديمة والتي أصبحت الآن تُعرف بـ "تركيا الحديثة"، "شوقي" البلد يحتاج أمثالك، وإذا لم تلبِّ نداء البلد بالتحرر من الفقر والظلم فصدّقني فالمملكة ستواجه أشرس هجمة ماسونية غربية للقضاء على الشعب، وسيذهب كل شئ أدراج الرياح، وأنت وغيرك ستُقتلون ولن تجدوا وقتًا حينها بالفرار أو النجدة.

لم أدرِ ما أقول فتحصنت بالصمت، لاحظت هي قلقي فابتسمت وقالت:

- أنا يهودية عراقية وقلبي على وطني، حبّنا سيخلص المملكة من الفقر وسنكون مثالًا صادقًا للعالم بتحريرنا للبلد من الجوع، أريدك أن تكون مثلي إن كُنتَ تُحبني كما أعشقك وأحبك بصدق، عِشقُنا عاش وولد من العدم وسيبقى أو هل تُدرك ماذا يعني حبّك لي؟

كاد قلبي يطير من بين صدري,كلامها يثير في داخلي الخوف مجددًا، فمن ناحية أعطيها هذا الحق، فمَلِكٌ لا يملك حكمًا يحكم به الشعب ولا يستطيع تحقيق أحلامهم، يجب تغييره وإقامة نظام دستوري جديد يؤمّن لنا العيش الرغيد، لماذا لا نبدأ بالتغيير إذن.. ما المانع من ذلك... الخوف؟

وفي أوج التردد الذي غصتُ فيه، وكأنها أيقظتني من غفلتي على حقيقةٍ كنتُ قد نسيتُ بعدها كلّ شيء بسبب مشاكلي، إلا أنني آمنتُ أخيرا بما قالت، وأن التغيير قد حان وقته، ولا وقت للتأخير، قامت هي ودارت نصف دورة حول مكتبها ووقفت بجانبي، بقدّها المشوق، وقد مدّت يدها إلى كتفي، حطّت كحمامة ليخفق قلبي من جديد ثم قادتني إلى الأريكة

بجانــب النافذة المطلة على حديقة فيلتها، لم أتحمل فضممتها علــى صدري، أحاطتني بذراعيها وبقوة عنيفة شــددتها، هذا الانفعال انطلقَ من صدرٍ حنون مشــوق، وهويتُ عليها بفمي، فوقعــتُ على أنفها، ثــم هبطتُ بجنون على شــفتيها، واللتين كانتا منفرجتان لاســتقبالي، وأخذتنا سنة من ذهول العشق، ثــم هوينا على الأريكــة، وانزلقنا بعدها على الســجّاد الأحمر القانــي الذي يُغطي أرض المكتب، وانغمســنا في عراكٍ لم يُحدّد الخاسر والغالب بعد.

★★★

(13)

في اليـوم التالي حضر قائد عسـكري عراقي إلى مكتبي وطلب مـني أن أكتب عن أنباء إدخال مشـاريع تنموية إلى العراق وأن أشـير بدور الملك في ذلـك، وأملي عليّ كل ما يجـب أن أبعثه إلى الصحـف اليوميـة، وأن أراقب المقالات اليومية التي تُنشـر كلّ يـوم، وأعطانـي لائحة بأسمـاء الكُتّاب العراقيـين الذين يجب أن تُراجـع مقالاتهم قبل النشـر، فلم يكن مني سـوى الإصغاء والطاعـة، غـادر المكتب وباشـرت عملي وكتابـة مقال طويل وعريض عن الملك، وفي نفس الوقت استنكرتُ هذه الحركة من قبـل ذلك القائد المغرور ووددتُ لو أنقلب عليه بنفسـي وأدقّ عنقـه ليعرف قدر نفسـه، ملأنـي الغضب وكلمات "سوسـن" كانـت تراودني حتى أنني بـتُّ غير معـارضٍ لأي كلمة قالتها بحقّ الملك، فأجداده من صُنع "مس بيل"، ويستحيل أن يكونوا يومًا من طبقة الشعب العراقي.

حاولتُ الاتصال بـ "سوسـن"، ولكن خطر على بالي خاطر بأن يكون التليفون مراقبًا حتى وإن تكلمتُ في أشياء عادية لا تمسّ

الملك، فإنّ كلّ ذلك من الممكن أن يُسجّل ضدي، فقررتُ أن أراها بنفسي ونتبادل الحديث معًا حول الموضوع الذي أثارته في نفسي حتى تُشير عليَّ ببعض النصائح.

وفي هذه اللحظة اتصلت بي "مناهل" فأيقظت باتصالها داخلي شهوة كبيرة، ودعتني على العشاء، كان صوتها مُسكرًا بما فيه الكفاية لتجعلني مجنونًا إلى لقائها بالرغم من مشاغلي الكثيرة، وطبيعي أن أقبل دعوتها وأزورها، ولكن يجب عليّ أولا إكمال أعمالي في المكتب، ومن ثمّ التفرغ لها ولندائها المُغري.

★★★

وانصرمت ساعة من المغيب، وأطبق الليل ناشرًا جناحيه، اقتربتُ من مسكنها لألبي دعوتها على العشاء، ووجهي يلوح فيه ابتسامة تنمّ عن التسليم، حتى ازداد ظلّ ابتسامتي امتدادًا.. اقتربت من البوابة الحديدية الضخمة للفيلا وحييّت الحارس الجالس خلفه ليقفز من كرسيه ويفتح لي البوابة، ويتنحى جانبًا بكل أدب ليسمح لي بالدخول مغمغمًا:

-السيدة في انتظارك سيدي.

رأيتها تفتح باب الفيلا وتنتظرني، وأنا أرنو إلى مفاتنها من بعيد.. وسِرتُ في اتجاهها بخطوات سريعة فرحًا لرؤيتها،

صعدتُ الدرجات بسرعة لأحييها وأشكرها على استقبالها لي، وكانــت هي أيضًا ترنو إليّ بعينين متألقتين تذكيان ضياء من وجد وتوثب.

كانت هي أيضًا مشــتاقة للقائــي، عرفتُ ذلك من تورد وجهها، وقبســت عيناها جذوة من قلبها المستعر وهي تحييني بحرارة قائلة:

-نورت الفيلا يا بيك.

فاستدركتُ بثقة ويقين قائلًا:

-النور نورك يا سيدتي.

فاهتبلتُ هذه الفرصة لأكمل:

- ما أجمل هذا الجسد الذي يختبئ تحت هذا الفستان.

فأدارت لي ظهرها وكأنها تريني الفســتان من الخلف كاملًا، ثم عطفت برأسها هامسة بحرارة:

-اتبعني يابيك.

فقلت مبتسمًا:

-أنت ست الملاح.

وتولاني في هذه المرة نزغ طاغٍ إلى المغامرة.

وقلقت عيني بين مفاتن صدرها الشــبه العاري وصرت أمشي

بمحاذاتها وأنا أمعن في خصرها والثوب الذي يرفل ويدخل بين فخذيها من أثر نسمة الهواء التي تدّخلَ في هذه اللحظة مشكورة ليخدمني في تقييمي لجسمها، فلاحت لي دنيا جديدة باهرة ضاحكة حتى انبعث في نفسها نشوة مطربة، وكان وجدانها من فرحة اللقاء يسجع شاديًا مع اللحظة، فاستحّر حماسي، وسكرت مشاعري، فرقص قلبي الصغير ودمي وكلّ خواطري. وعند مدخل الباب لم أتحمل.. أمسكتها من ذراعها وسحبتها نحوي بقوة نحو صدري وهوى فمي إليها، أرادت أن تتقيني الملعونة ففشلتْ واستسلمتْ، ألقت برأسها إلى الوراء قليلاً ولكني لم أجد في ذلك رادعًا، فطبعتُ شفتيّ على شفتيها وسرَتْ في أعماقنا رعدة لذيذة، حتى أنقذتها بصوتي:

- أدخل؟

غمغمت وهي تُرتب ما خرب من زينتها:

-تفضل يابيك.

فانزلقتُ إلى الداخل، وجرت خواطري إلى أول يوم دخلتْ هي فيه إلى مكتبي، وأيضًا تذكرت أول مرة دخلت فيه هذا المكان، ورأيت حينها أخاها جالسًا كالفرعون في مجلسه في الصالة.

وبعد العشاء تقاسمنا مشاعر الميل، فاقتربتُ منها حتى صرتُ

لصقها، أحطتُ خاصرتها بذراعي، استسلمت هي، كانت ساكنة ولا تدري متى يحق لها المقاومة، وحسبتها وقعت في فخي، هاهي إذن تأخذ سنة من الغرام ونصيبها مني، مددت يساري إلى ذقنها فرفعتُ ثغرها حتى التقت شفتانا في هدوء، فاستجمعتُ كل قواي لأنفذ به إلى ما أريد كظمآن يكرع من جدول. أمّا هي فكانت تسكر وتثمل.

★★★

(14)
حدث مهم في بغداد
تموز 1958م

في العاشر من شهر تموز كانت هناك زيارة من قبل رئيس أركان الجيش العراقي إلى الملك حسين، حيثُ أرسلته الحكومة العراقية في مهمة خاصة جدًّا لكي يحذّر الملك حسين من بعض المؤامرات التي تديرها الحكومة المصرية ضده، فكانت هناك نقطة تغيير طرأت على أفكار الملك حسين وهي ردّ الجميل لابن عمه الملك فيصل الثاني، فحذّر بدوره اللواء قائلًا:

- هناك وحدة من الجيش العراقي بقيادة عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف يحيكان مؤامرة انقلاب عسكري، ويجب على ابن عمي ألا يوليهما الثقة، فهما شيوعيان واتخذا من الأردن مركزًا لهما، لا تقلق علينا فإننا نعرف كيف نعتني بأنفسنا ولكننا قلقون بشأنكم.

ومع ذلك فقد تأخر الانقلاب المتوقع أو لربما تأجل لأيام، حيثُ حدثت بلبلة سياسية شغلت الملك فيصل بينما كان مشغولًا

بمعالجة الأمور الداخلية للمملكة، وما كاد يطفئ فتنة حتى اشتعلت أخرى، وكان فتنة اليهود التي اشتعلت أكبر وأعظم الفتن.

كانت الأخبار تصلني أولًا بأول، بل وقبل أن تصل البلاط الملكي، كنتُ أنا أول شخص تصلهُ أخبار المملكة الخطيرة، وكنتُ بدوري أبلّغ "سوسن" بالأحداث لكي تطلع عليه، وكانت تنصحني بما يجب فعله، وألا أخفي شيئًا عنها خوفًا عليَّ من أن أكون ضحية للدسائس.

★★★

كان خاله عبد الإله هو المسيطر الحقيقي على القرارات التي تصدر من الملك، بعد أن نجح في خلق مشاعر الودّ المتبادلة بينه وبين ابن أخته، حتى استغلّ تلك المشاعر ليُمارس دور الملك في سياسة الدولة العراقية، حيثُ لم يتخلَّ عن واجبات الوصاية، ولم يترك أمور البلاد وكان يقحم نفسه في كلّ صغيرة وكبيرة، وتمكن من زرع بذور الطاعة في نفس الملك فيصل الثاني، حتى أن الأخير لم يتمكن في الإفلات من هذا الطوق وفشل من الاقتراب من الشعب، فكان هناك تنظيم سرّي مشابه لتنظيم الضباط الأحرار في مصر، وكان الفريق عارف ينفي ذلك،

وأعلن تعجبه إلا أنّ الملك حسين عندما أرسل ضباطه للكشف عن صحة المعلومات، وتأكدّ أن هناك نشاطات لإعداد حركة عسكرية ضدّ الملك.

فكان الفريق عارف عند عودته إلى بغداد مغتاظًا جدًّا من الإنذارات الأردنية، وذلك لأن سمير الرفاعي "رئيس الوزراء الأردني" أخبرهُ بضرورة اعتقال ألف ضابط عراقي عسكري، وهذا بالطبع مستحيل لأنهم كانوا من أحسن الضباط العسكريين، حتى تقرر إرسال لواء العشرين بقيادة العقيد عبد السلام عارف الذي كان يحوز على ثقة أركان الجيش إلى الأردن يوم 14 من تموز، وكانت الاستخبارات العسكرية الأردنية لديها معلومات تؤكد نية بعض الضباط العراقيين على الانقلاب، وسلّمت قائمة بأسمائهم إلى الفريق عارف في معسكر اتش 3، وفنّد وقتها الفريق عارف ادعاءات الملك قائلًا:

- من غير المعقول أن يكون العميد عبد الكريم قاسم أحد هؤلاء الضباط الذين يستعدون للانقلاب فهو من أخلص ضباط العرش والحكومة، وأن هناك الكثير من الضباط يخشونه لاعتقادهم بولائه الشديد للعرش، وأوعز بأن سبب هذه الادعاءات أن أعداء المملكتين يسعون إلى استخدام الطابور

الخامس، لأنه هالهم الاتفاق الوحـدوي بين المملكتين فأخذوا في حياكة الدسائس لإفشال هذه الوحدة.

ولم تؤخـذ هذه المعلومات الخطيرة علـى محمل الجد، بالرغم من إرسـال الملك حسـين برئيس مخابراته ليخطـر الحكومة العراقيـة بقـرب سـاعة الصفر وسـتنفّذ الحركة العسـكرية خطتها، فلـم يلتفت أحد للتحذير حتى قال "نوري السـعيد" للداغستاني:

-هل تُصدّق أنّ عبد الكريم قاسم يتآمر لإسقاطي؟

فطلب ملّفه، ولم يجد أي مؤشـرات على اسـتعداد عبدالكريم قاسـم لخيانة العرش والحكومة، ولأنّ الأخير هو من كان يزود الاسـتخبارات بالتحركات المشـبوهة فقد اسـتبعدت الحكومة صحة هذه المعلومات.

★★★

(17)
يحدُث الآن
ميناء البصرة

انصرمت ساعة المغيب، وأطلق الليل ناشرًا جناحيه لينشر ظلمته، وكان هناك رجل يُصوّب عينيه نحو السفن الراسية في الميناء، تلوح في وجهه ابتسامة تنم عن الخُبث، كان طويل القامة والذراعين، ممطوط الفك الأسفل وغائر العينين، كان الظلام شاملاً والمكان يطبق على جنباته السكون، وكان حرس الميناء قد تجمعوا في غرفة يتسامرون ويشربون الشاي في استراحتهم وكانوا يتناوبون في الحراسة حتى الصباح.

وفي هذا الهزيع من الليل مرق شبح "الذئب العجوز" صانع الأحداث، عرج إلى مكان الرجل الذي ينتظره بفارغ الصبر، وما لبث أن تنوّر وجهه على ضوء النجوم الشاحب، فهمس:

- بما أنني جئت بنفسي بدل الرجل المنتظر فهناك شيء مهم يستدعي كلّ ذلك القدر من الاهتمام.. هذا ما تريد أنت أن تعرفه.

فأجابه الرجل:

- تقرأ تساؤلاتي من على بُعد ميل.

- ما أخبار رئيس الحرس؟

- على ما يرام، لا تقلق، الوجبة الثانية من الأسلحة سنشحنها قريبًا.

- الرجل الكبير يريد أن تتم العملية بأسرع ما يُمكن، لا مزيد من التأجيل ولا نريد متاعب.

- أشمّ رائحة تغييرات أيها العجوز.

- ستؤجل بقية العمليات إلى ما بعد الانقلاب العسكري، جئتُ بنفسي لأبلغك ذلك.

- بل أعتقد بأنّ هناك أشياء أخرى جئتَ لتبلغني عنها.

- سنتخلص من عيزرا.

- ماذا؟

- هذا ما أرادته الإدارة العليا، و"روان" أيضًا ستلحق به، تلقينا الأمر وقُضي على هذا النحو، علينا أن ننفذه بسرعة.

قال الرجل وفي وجهه علامات الدهشة:

-هل تعلم ما نتيجة ذلك..؟ نحن إن..

فقاطعه "الذئب العجوز":

- هذا ما تريده السيّدة فلا تناقش.

- ولكن لمَ؟

- الخطط تتغير والأمور تسوء، وسنعرف حينها المغزى من هذه التغييرات.

- إذن..

- لنركز على عملنا فأنا أكتفي بالربح، هذه الأسلحة صفقة رابحة لكلينا، فلا تُضيع علينا الفرصة.

تنفس الرجل بعمق قبل أن يسأل:

-هل سيتحركون نحو القصر في الموعد؟

- لا أحد يعلم الوقت بعد، ولكن الضباط الأحرار سيتحركون لتنفيذ الخطة، فالرجل القادم يجب أن يكون من اختيارنا، فاللعبة لا تتحمل المزيد من الأخطاء.

- إذن هذه الأسلحة من حقهم وليست للعشائر!

- العشائر التي تم الاتفاق معها ستساعدنا في كبح جماح مخافر الشرطة التي ستحاول أن تقضي على حركات التمرد التي ستنطلق في الشوارع، ويجب أن نشعل حرب الشوارع فهذا الأمر مهم جدًا.

- الصناديـق في المخـازن، وتمـت الموافقـة على إنزالهـا من قبل الضابط الذي جندناه، وقد قبض أتعابه على ذلك.

- كالعـادة سـننقل الصناديـق على أنهـا بضائع مسـتوردة إلى الكويت ومنها سيتم تغيير الشاحنات قبل انطلاقها إلى بغداد.

لاحت مـن عينيّ الذئب العجوز نظـرة ذات مغزى وهو يرمق الميناء بنظرات تقدح شررًا قائلاً:

-هـذا المـكان يريـن عليه صمـتٌ رهيـب وكآبة شـاملة، وكأنّ الرصيف يودّع بحزن آخر الملوك.

- إذن فلنغادر المكان قبل أن يتسـرب الحراس إلى الميناء إنهم في الاسـتراحة الآن، والبيت قريب جدًّا من هنا، وسترتاح به قبل أن نباشر عملية النقل.

★★★

(16)
عواقب لم تكن في الحُسبان أبدًا

كان شـقيقها قد طلب مني مقابلتـه في منزلٍ غريب في إحدى مناطق الكرادة الشـرقية ببغداد، والذي يطلّ على نهر دجلة، أبلغني بهذه الرسالة شخص من أتباعه جاءني في زيارة خاطفة إلى قصـري ونبّه عليَّ بضرورة الحضـور في الموعد المحدّد لأمرٍ هام وضـروري جدًا، كنـتُ قلقًا على غياب أخـتي وقتها لأيامٍ معدودة، ولكنني اعتقدتُ بأنها مع زوجها يُعربدان كالعادة في أحد المصايف في الشمال، فقد اعتدتُ غيابها منذ زواجها الأول، تعجبت جـدًّا من أمر الدعوة المفاجئـة، ولم أجد أي مانع بأن أُعلمَ "سوسـن" بالموعـد المريب الذي طلبـني لأجله، نصحتني بالذهـاب وطمأنتـني بأنها لن تتركني لوحـدي إذا ما صادفني أي طارئ.

ذهبـتُ حسـب الموعـد، وكان المـكان مريبًـا جـدًا، ولا أخفـي بأنـني كنتُ واجف القلب، وكنتُ أدفـع بقدميَّ الثقيلتين لكي أكمل المشـي نحو العنـوان الذي من المفـروض أن أقابل به هذا

الرجل، استجمعتُ شجاعتي وطرقتُ الباب ففَتحتهُ حسناء لا تقِلّ جمالاً وأنوثةً عن "مناهل"، بقامتها الهيفاء، ونظرتها المستقيمة قائلة:

- تفضل "سيد شوقي".

دخَلتْ وأغلقتُ الباب ورائي وتبعتها غير مطمئن وفي رأسي تعبثُ الهواجس، سنحتْ منها التفاتة وهي تمشي في الممر أمامي فوقع بصرها عليّ وأنا أداري ارتباكي، فقالت بهدوء:

- لا شيء يدعو إلى القلق، أنت مدعو إلى هنا لأمرٍ هام، والأستاذ ينتظرك في الداخل.

تقدّمنا خطوات إلى الداخل حتى ظهر لي شقيق الغزالة، وكانت هي جالسة بالقرب منه!

استقبلني بوجهٍ يُظهر ابتسامة تختفي وراءها خبث غير مُعلن، التفتَ إلى الحسناء قائلًا:

-شكرًا "كروثر"، سيد "شوقي" ضيف كريم وعلينا أن نقوم بواجب الضيافة معه، تفضل اجلس صديقي.

جلستُ ولم أتفوّه بكلمةٍ بعد غير السلام عليكم، فقد أيقنتُ حالًا بأنني قد وقعتُ في فخٍّ لا مناصّ منه بحاسّة سادسة لا تخطئ أبدًا، ثم خاطبني محافظًا على هدوئه:

-"شـوقي بيك" نحـن على موعد مـع القدر هذا المسـاء، والذي سـيُغير تاريخ العراق إلى الأبد، وأريد أن أُعرّفكَ بهذه المناسـبة علـى نقيـب طيار عراقي، سـيصل بعـد لحظـات وارتأيتُ أن تقابله وتعرفه عن قرب.

بـدأت أشـكّ في أسـلوبه هذا,أسـلوب الثعلـب الملتوي في سـحب ضحيتـه إلى الفـخ ليقضي عليه بهدوء، حتـى خِلتُ بأنّ خلف الجدران شياطين سيخرجون من العدم في غمضة عين لقتلي، وانتقلـت عينـاي إلى أختـه الـتي كانت جالسـة بهـدوء، ومن ثـمّ، وبشـكلٍ لا إرادي، إلى "كروثـر" الوجه الجديـد في اللعبة، وبعدهـا لاحت مني نظـرة قلقة عليه، كان يبتسـم ويتحدث بـكلّ أريحيّة، فأصابني الخوف والهلـع من الداخل، وكدتُ أفقد توازنـي في رعبٍ متزايـد لا أدري لماذا! بالرغـم من أنني كنتُ أتمالك نفسي حتى أخفي شعوري بالخوف والقلق، ولكن سُدى فأمامي أشخاص غير عاديين يعرفون الخبايا في داخل الإنسان بنظرة ثاقبة، فقلت:

-وما علاقتي أنا؟

- بصفتك أحد رجال الدولة سابقًا ولاحقًا، فإنني أرى أن تطلع على بعـض المعلومات المهمة التي تجهلها بالرغم من قربك من الأحداث.

ودّدتُ لـو أغـادر مجلسـي في الحال، ولكـن الشـجاعة خانتني، وفجأةً أحسسـت بأن شيئًا صلبًا يمسّ رأسـي من الخلف، فوهة مسـدسٍ بارد! هي من كانـت تصوّبه إلى جمجمـتي، نعم هي، رغم أنوثتها الناعمة، لكنها كانت في هذه اللحظة نمرة وحشية مسـتعدة أن تمزق أحشائي وتشتت أشـلاء جسدي بلا رحمة، وقفـت "كروثـر" بجانبه رفعت فسـتانها لتُخرج المسـدس من جراب مشدود على فخذها لتسلمه إليه قائلة:

-عيزرا لعلك تريد إنهائه بنفسك.

غمغمتُ مشدوهًا:

-عيزرا!

- أهلا بك بيننا سيّد "شوقي".

قالت "كروثر".

فبادر "عيزار":

-الضيـف ليس بغريـب، ولذلك أردتُ أن تراه بنفسـك قبل أن أرسلكما إلى العالم الآخر، انتهى دوركما وحان وقت التصفية.

تزايـد خـوفي، ولم أسـتطع الكلام من شـدّة الخـوف، ثم قرع أذنـي صوت دق علـى الباب حيثُ كان الطرقُ يتصاعد بشـدّة حتى هبّت "كروثـر" لفتحه، فدخل الزائر وكنت في اضطراب

متزايـد حتى دخوله حجرة الاسـتقبال، تجمّدت أطرافي في حال رؤيتـه، لا هـو يُصدّق أنه أنـا، ولا أنا أصدّق بأنّ مـا أراه أمامي حقيقـة وليس كابوسًـا، في بداية الأمر كنتُ أجهلُ سـبب هذا اللقـاء غير المُريـح، والمغزى من هذه الخطـة التي ظهرت فجأة في اللعبـة! ذلـك الرجل الأنيق هـو ضابط طيـار؟ زوج أختي المعتوه؟ نقيب!

كان الرجلُ غاضبًا من "عيزرا"، فضحكَ الأخير قائلًا باستهتار:

-هذا ما كنت أريد كأن تراه قبل أن أقضي عليكما.

خـارت قـواي، وارتقبـتُ اللحظـات القادمـة في رهبـة وهلع، ووسوسـت لي نفسـي أن أقتل هذا الضابـط الخائن وكلّ من في الصالة، تجّمد بصري عليه للحظات وهو يتحدث مع "عيزرا"، وكان الغضب والحقد قد سيطر عليهما وهما يتحدّثان.. فقال الأخير:

- النقيـب شـاكر.. جـاء الوقـت لكـي ننهـي كلّ شـيء.. أنتما سـتكونان آخـر مهمـة لي في الخطـة لهذا المسـاء، لقـد تلقيتُ أمس برقية مسـتعجلة بالتخلص منكما وإنهاء كلّ شيء، آسف عزيزي، ولكن الأوامر، أوامر.

ثم أشـار بمسدسـه للنقيب بالبروك على الأرض وتفتيشه من

قبل "روان" وعلمتُ في هذه اللحظة بأنّ "روان" اسمها الحقيقي، ولسوء الحظ لم يكن شاكر يحمل سلاحًا رغم أنه كان من المفروض أن يحتاط لهذا الأمر قبل مجيئه، ولكنّ الظاهر أنه تلقّى دعوة الحضور من "روان"فلم تساوره الشكوك أبدًا بأنه سيقع في الفخ مثلي، بيد أنه لم يكن يعلم بأنها قد نصبت له كمينًا قاتلًا.. ممّا سهل على "عيزرا" السير قدُمًا في خطته وبلا رادع.. فالتفت إليَّ قائلًا:

-بينما كنتَ تستلذ على سرير "روان" وتنهلُ من عبق أنوثتها الرائعة، كنتُ أنا شخصيًا أحفر قبر أختك في الحديقة الخلفية لأدفنها وأزيحها عن طريقنا، فنحن كنّا نبحث عن الصندوق الذي أخفى فيه والدك أوراقًا مهمة تضم نشاطات منظمتنا واتفاقياتها حول أمور تخصّ سياسة العراق، ولكن أختكَ كانت المانع الوحيد أمامنا، ومع ذلك لم نجد الصندوق، وقد حانت ساعة التصفية لدفن كلّ الأسرار والتضحية بالصندوق بشكل مؤقت إلى إشعار آخر.

كانت تلكَ اللحظة صعقة خرقت كلّ أجزائي وهدّمت بقايا عقلي وثباتي، بعدما سمعتُ بأن أختي تم قتلها وبأن "شاكر" كان جزءًا من لعبتهم، حيثُ تم ترتيب زواجه من أختي ليتم

زرعـهُ بيننـا من قبل المنظمـة بغية معرفة مـا يجري داخل القصر الذي نسـكن فيـه، لقد اسـتغلّوا نقاط الضعـف لكلينا حتى أُلزمتُ رغمًا عني بقبول هذا الواقع المرير، وها أنذا أدفع ثمن خِسّتي ويا ليتني تعلمتْ.

فأكمل عيزرا:

- بينمـا المجـد ينتظرنـا في إسـرائيل، لا يجب علينـا أن نُخلّفَ أية أدلة من شـأنها تهديد أمننـا وحياتنا، لأنني بصراحة غير مستعد أن أخسر موقعي بسبب أشخاص أغبياء، اللعبة حان لها أن تنتهي هذا المساء قبل أن يثور الشعب، ويكون هذا البلد خاليًا مـن القانون، أنتما لم تكونا في هذه اللعبة سـوى كومبارسـين بائسـين، والتخلص منكما هـو نهايةً لهذه اللعبـة، وللتوضيح أكثر فإنكما عملتما للماسـونية وقدّمتا ما لم يقدمه أحد من قبلكم من خدمـات للمنظمة، ولكن حينمـا تريدُ المنظمة أن تتخلص من أبنائهـا فإنها لن تتأخر، فالمصلحة العليا لا تكترثُ بمـا قدّمتمـوه من خدمات لهـا، أنتم تذهبـون ويأتي غيركم، الأبناء في كلّ مكان، ولن يصعب علينا تجنيدهم بالمال.

كان "عيزرا" الداهيـة في طريقه قُدمًا نحو قتلنا، تجِفّهُ الثقة، قـام فجأة من مجلسـه وتوجّه صـوب النقيب "شـاكر" فغمغم الأخير:

-عليكم اللعنة جميعًا كنتم تستخدمونني كلعبة، وما إن انتهيتم مني أصبحتُ بالنسبة لكم شيئًا تافهًا.

- أتعلمُ لماذا؟

تطلع "عيزرا" في وجهه بغضب قبل أن يُكمل:

-لأنّ مصير الخائن إلى المزبلة، إيّاكَ أن تظن بأنّك عامل رئيسي في اللعبة، لا، أنا من اخترتك وأنا من سيُنهي كلّ شيء "

ثمّ أومأ برأسه في اتجاهي قائلًا"

-هو أيضًا نفس الشيء، أخذنا منه ما نريد باستثناء بعض الأوراق، ولكن لا يهم سأجد ذلك الصندوق اللعين بنفسي.

وهنا لم يترك "عيزرا" فرصة للتعامل معه، بل وبدون تردد صوّب فوهة المسدس إلى ضحيته وأطلق رصاصة على رأسه دلّت على مدى احترافه التصويب، حيثُ تناثرت شظايا عظام جمجمة "شاكر" في الهواء، ولم يكتفِ بهذا فقط، بل وضع المسدس في خاصرته ليتلقف خنجرًا حادًّا من فوق الطاولة، وبينما هو يبتسم في وجه "كروثر" كانت هي تُبدي سرورها بما صنعهُ مخلّصها "عيزرا" أو هكذا اعتقدت هي، فتوجّه نحوها بكلّ هدوء حتى وقف قبالها قائلًا:

-تخلصتُ منه لأجلك، فكيف أدع المنظمة يغتالونكِ بسبب

ضابطٍ خرج عن أمرنا وهدّد بقاءنا، أليس كذلك؟
كانت على وشك أن تردّ لتشكره ولكنّه عاجلها بضربة على فكّها من قبضته كانت كافية بأن تقذفها إلى الخلف من شدّة الضربة ووقعت على الأرض تتألم بشدة، ثمّ شدّها من شعرها مستغلاً آلمها وجرّها من شعرها بقسوة واضعًا الخنجر على رقبتها من الخلف، لم تندهش "روان" لأنها كانت شريكته في خطة التصفية التي تحصل الآن، أما أنا فقد تمنيت أن أزول من وجه الأرض وإلى الأبد، قال لها وهي تتألم من شدّة النزيف من أنفها:
-أنتِ فشلتِ في تجنيده ولا مكان للفاشلين بيننا حبيبتي، تعليمات المنظمة واضحة جدًّا لا حياة لكِ بعد الآن، ولأنّ الموساد لا يقتل عملاءه، ولكنني سأفعل، كدنا أن ندفع ثمن حياتنا بأخطائك، آسف "كروثر" عليّ أن أقتلك وإلاّ فأنا من سيدفع ثمن ما اقترفته من ذنب أحمق.
لم يبالِ بتوسلاتها، بل ضغط على الخنجر أكثر ليذوب في نحرها مُستلذًا بتعذيبها، بدأ النصل يذوب ببطء وقد كتم بيده الأخرى فمها، وقد صبغ النصل باللون الأحمر، كانت تحاول أن تصرخ من شدّة الألم ولكنه كتم فمها بشدّة، بينما

يتلـذذ هـو في ذبحها.. كانـت عيناه قد جحظتـا بجنون، وكان يضحـك بهسـتيريا مخيفة من تدّفـق الدماء مـن رقبتها التي غطّت كلّ شيء، ومازال يُعذّبها حتى صاحت "روان" بحقد:

-اقتلها يا"عيزرا" إن كنتَ مخلصًا لقضيتك.

توقف "عيزرا" فجأة وأبعد نصل الخنجر عن رقبتها قائلًا:

-ليسَ قبل أن يعرف "شوقي بيك" تفاصيل اللعبة كلها..

نظر إلى الجثة التي كانت ترفس من الألم ثم خمدت للحظات:

- أريدها أن تتألم، فهذا يضيف إلى نفسي نشوة أعظم من شهوة وطئها.

ثمّ تركها على الأرض وكانت مازالت حيّة، تتعذب بشدّة حتى فقـدت وعيها من أثر النزيف، التفـت إليّ ليواصل كلامه وقد انقلبت ملامحهُ إلى ملامح شيطانية:

- بينمـا أعواني ينتشـرون في كلّ مؤسسـات العـراق الحيوية، وأنـا بـدوري كنتُ قد أخـذتُ أمدّ الإسـرائيليين بمـا يُذهلهم مـن معلومات عن أحشـاء العراق، وشـرايين الحيـاة المختلفة بـه، كُنتَ أنـت خيرُ عونٍ لـي في مهماتي الآتيـة خصوصًا بعد أن تم تعيينـك في القصـر الملكي مـرةً ثانية من قبـل رجالنا في الحكومـة، فبفضلك اغتلتُ أغلب الشـخصيات خطورةً على

مصـالح اليهود في العـراق وخارجه، أما هذا الطيّار العسـكري فقد اختارتهُ هذه البائسة كجاسوس ولكنها فشلت في ترويضه لوقت أطول، بسبب طموحاته وجشعه وطلباته التي لا تنتهي فقررنا أن نتدخل لاحتوائه، ومن خلال التكليف الذي تلقيته من الراديو ارتأينا أن نزوِّجه أختك لأننا نعلم ذوقها في الرجال وأيّ نوعٍ من الرجال تسـتلذ معهم فنجحنـا في إغوائها به لكي نزرعـه قريبا منكم، كنّا نحاول قبـل فترةٍ وجيزة من إقناعه بقبول الفرار بطائرته الحربية "ميج 12" إلى إسرائيل ولكنه رفـض وخرج عـن أوامرنا، تهـور وتمرد علينا بعـد أن تزوج أختـك وعاش حياةً رغيـدة وأصبح يغرف من الشـهد بفضل أموالها، تخيّل "سـيد شوقي" عندما أحضَرتهُ إليَّ "كروثر" كان مفلـس الجيب والأمل، ومن خلال علاقاتي في الشـبكة جعلته يبلغ رتبة نقيب في فترة قصيرة.. وأصبح زوج أختك.

قاطعتهُ بحدّة:

-دفعتهُ إلينا ببلاء كلّف حياة أختي، ستدفع ثمن ذلك وبلا شك "عيزرا".

- وحياتك عزيزي "شوقي بيك".. "قالَ عيزرا"..

-في البداية اعتمدنا على الاتفاق الذي بيننا وبينه، ومن خلال

بعض القـادة الكِبار اسـتطعنا أن ندرجه في جدول السـفر إلى الخارج لكي يلتحق بدورات تدريبية في موسـكو ولندن لزيادة كفاءتـه كطيّـار للميـج 12 القتالية الاعتراضيـة التي تُرعب إسـرائيل، ولكنّـه أخفى عنـا معلومات مهمة، ونسـي أننا من أرسـلناه ليكون جاسوسـنا هناك، وبعد عودته التقيتُ به مع "كروثر" في إحدى الحفلات، وبالرغم من استخدامها لأسلحتها الطاغية لإرجاعه إلى خط المسير الذي نريده فشلت في أن تلفت انتباهه نحوها من جديد، لأنه بصراحة صار يتجاهلها، تملكها الضيق لكونها أنثى لا تُرَدْ، فأطلقتُ بدوري عليه "روان" ليُظهر الرغبة في التعرف عليها، وكنتُ أراقب كلّ شيء، وأخطط لهذه اللحظة منذ شـهور لإيقاعه في هذا الفخ، ومن خلال مراقبتنا لأختـك وطباعها خططنا لتزويجهما لنقل كلّ ما يدور بينكم من الأحداث إلينا، ونجحنا بعد جهدٍ في استدراج أختك لتتعلق به وبالتشـبثِ به كفارس أحلامهـا، دفعناه بينكم لكي يخبرنا بمـكان الأوراق والعقود التي كان والـدك يخفيها في مكانٍ ما في القصر، ولكن شاكر فشل في ذلك، وقررنا التخلّص منهما بشكلٍ نهائـي بعـد أن تأكدنا من ضـرورة إنهاء اللعبة بشـكلٍ نهائي، فاتصلتْ "روان" بأختك هاتفيًا وأخبرتها بأنّ زوجها يخونها كلّ

ليلـة مع راقصة لبنانية ويصرف عليها من مالها، وأنه الآن مع عشـيقته في مسكنها يمارسان الجنس لتُجن أختك أكثر وتأتي، وفي نفـس الوقـت الذي كُنتَ أنـت تتمتع مع "روان" في سـهرة حمـراء، تخيّل مـدى حقارتنا سـيد "شـوقي، بعدها حضرت أختك الغالية إلى هنا ووقعت في الفخ، ومن ثم تخلّصنا منها في الحديقة الخلفية للفيلا، " كُنّا ندفنُ جثة أختك" في تلك الليلة وأنت لا تعلم.

كانـت عينـاي قـد خرجتا مـن محجريهما، تحـوّل الخوف إلى غضـب عارم، ولكـنّ أطرافي كانت مشـلولة تمامًـا، فتصببتُ عرقًـا غزيرًا ابتلّ الجسـدُ بهِ كاملًا، كان هو يسـتلذّ بتعذيبي نفسـيًا، ويسـردُ في نفس الوقت تفاصيل أكثر وأكثر عن زوج أختي وحتى اللحظة التي تم إيقاعي في الفخ منذ مقتل والدي وإلى هذه اللحظة المشئومة:

-ولكنّ "شـاكر" قبل أن يتزوج أختك سافرَ إلى أمريكا للحصول علـى دورة في قيادة التشـكيل، وبالتحديد "تكسـاس"، وهناك تولّـت المخابرات المركزيـة الأمريكية أمـره، ضايقنا جدًا هذا الأمـر، مما أخرّ تنفيذ ما كُنّا نخطط له، ومنها اغتيالك طبعًا، وبنفس الطريقة التي تمّ اغتيال والدك لأنّ الابن سرّ أبيه .

أطلق ضحكة حقيرة مدوية قبل أن يواصل:

- أطلقنا عليه فتاة كانت تعمل مشرفة في نادي الطيارين الشرقيين لكي توقعه في حبائلها، وتكون في نفس الوقت على علم بما تديره المخابرات الأمريكية له من خطط، ولكنه علمً من خلال تجاربه بأنّ الفتاة كانت تعمل لصالح الموساد الإسرائيلية، وبأنها ماسونية في نفس الوقت، فبدأ يعمل معنا بخُبثٍ أكبر وبروح التحدّي التي يمتاز بها عكسكَ تمامًا.. ولأنها تنتمي للجمعية الماسونية فقد كانت تحملُ تصريحًا بالقتل، وكانت عازمةً في تصفيته مهما كلّف الأمر، ولكن قبل كلّ شيء أخبرناها بأن تعرض عليه آخر فرصة وهي مليون دولار أمريكي ثمنًا لطائرة الميج 12، ليفرّ بها إلى إسرائيل فلم يوافق، وضربها ضربًا مُبرحًا حتى أدمى وجهها ثم قتلها بآلة حادّة، واستطعنا ثانيةً احتواء الأمر وانتظار عودته إلى العراق، واستطعنا أن نصوّر له غروره كنوع من الذكاء وبأنه بطل ونحنُ لن نستطيع الاستغناء عنه، فصار مغرورًا بذكائه كما أردنا أن يكون، أن يغترّ أكثر وأكثر حتى يبلع الطُعم، وحلّبه ما حل كما ترى، أمّا بخصوصك أنت فلا أظن بأنكّ ستنفعنا بشيء بعد الآن، أخذنا منك ما نريد ويبقى الصندوق، وسنصل إليه

بمعرفتنا، آسف سيّد "شـوقي" فأنا مُضطّر إلى قتلك في النهاية بعد هذه القصة الشيّقة.

امتشـق الخنجر بجنونٍ ظهر على ملامحـه وفي نيّته إكمال ما بـدأه، عـادَ إلى "كروثر" ليُنهـي عملهُ الإجرامي، فحـزّ رقبتها بسـرعة، فاختلطَت صرختها المذعورة بخوارهـا واندفعَ الدم مثلَ نافورة.

★★★

كان القاتل الماسوني مشغولًا بإزالة الآثار والبصمات في الصالة، وقد جرّ جثة "شـاكر" إلى أسفل السرير في غرفة النوم ملفوفة ببطانيـة، بينمـا تقـوم "روان" بتقطيع الجثّـة الأخرى وهي عارية وقذفها داخل حوض الاستحمام المليء بماء النار، لتتحلّل بدورهـا ولا يبقى لها أي أثر غـير بقايا العظام، لم أفهم لماذا لم يتم التخلص من جثة "شـاكر" بنفس الطريقة بدلًا من تركه تحت السـرير، ولكنني فهمت القصة بعد ذلك، حيثُ إن الشقة تعود لضابطٍ عميل وكان "عيزرا" قد قرّرَ أن يورطهُ في جريمة قتل مسـتغلًا وجودهُ خارج بغداد، وبطريقة أو بأخرى سوف تُلصق التهمة به لأنّ الضابط في مهمة سرّية للجمعية وكتمانه للسـفر أمر مُلزم. "مناهل" أو "روان" الأنثى تحولّت إلى سفّاحة ! لا أصدق ما أراه..

قـد تقّصـدا أن أرى مـا يفعلانه قبل أن يتخلصّـا مني، اعترف لي "عيزرا" بدوره بكلّ شـيء، وضحـت كلّ ألاعيبهم الآن، من إعادة تعييني مجددا في القصر، ولعبة الجوازات ولحظة الهجوم علـيّ في القصر ومقتل أمّي، وخطط تهريب الأسـلحة وأشـياء يصعبُ تصديقها، كنتُ وأنا أفكر بذهول فيما حدث قبل قليل أتوقع المـوت في أية لحظة، ولهذا بلغ بي اليـأس مداه، وتمنيتُ الموت بدل من أن أتجرّع كلّ هذا الرُعب، وخصوصًا وأنا موثوق اليديـن، فهذا كفيـلٌ أن أفقد الأملَ في النجاة وانتظر بلا شـك نهايتي.

نعم أنتظرُ نهايتي، لا شـك من ذلك، ولأنني أيضًا أيقنتُ بأنني بالغتُ في ثقتي بـ "سوسن" في إنقاذي، فقد كانَ عليَّ منذ البداية ألا أحضر هنا، فهاهما القاتلان ينظفان كلّ شيء، ولكن أو ليس مـن المفـروض أن ينظفا المـكان بعد أن يتخلصا مـني؟أم أنّهما سـيخطفانني إلى مـكان بعيد ويتخلّصان مـنّي هناك؟ تحيّرت مـن الجواب وتركتُ الأمر للقدر، رغم أنني لم أكن يومًا أعترف بالأقـدار وخالق الأقدار، ولكنّ في هذه اللحظة وجدتُ نفسـي، وبشـكلٍ غريزي، أتوّجه بالتضـرع إلى ربٍّ طالما نفيت وجوده،

فكـم نحنُ ضعفـاء بل وتعسـاء، تمنيّتُ لحظتهـا أن يواجه كلّ ملحدٍ ما أواجههُ أنا الآن، وساعتها سأرى بمن سيستنجدون !

★★★

في خضمّ هذه الأفكار العشـوائية القاتلة كنتُ فريسـة للرعب واليأس، حيثُ إنهما كانا يسـتخدمان معي شتى أنواع الحروب النفسـية التي هي أساسًـا أقسـى من الموت، تبوّلتُ على نفسي مرتـين حينها، وبعد أن تممّ القاتـلان عملهما اقتربا منّي بكلّ هدوءٍ وخُبث، كانت هي تُمسـك بالساطور وكان عليه بقايا من لحوم ودماء، والثاني يمسكُ مِفكًّا كبيرًا يريدُ أن يغرزهُ في عيني وكأنـه لم يكتفِ من مسـرحية الليلة الدمويـة، وفجأة سمعنا صـوت محاولة فتـح الباب، فلم أكّذبْ أذنـيَّ وقتها وأنا أرى بأنّ القاتلـين حانت منهما بادرة قلق وخوف رسِمتْ على وجهيهما من الأصوات الـتي تُريد أن تدفع الباب لتدخل، وهنا رجع إليَّ الأمل من جديد، لم تسـنح لهما الفرصـة للهرب أو الدفاع عن نفسـيها من خطر الاقتحام، حيثُ رُكِلَ الباب بقوة غير عادية مُصدرًا صوتًا مدويًا عن طريق اقتحام الباب بكسـره بطريقة تناثرت فيه بقايا الباب بشكلٍ مخيف، فدخل أربعة رجال كلّهم بنفس الضخامة والطول، كانوا يحملون بنادق رشاشـة وبدون

سابق إنذار رشّوا "عيزرا" و"روان" برصاصات كانت كفيلة بأن تنخل جسديهما وتُرديانهما قتيلين في الحال، الرُعب تزايد بداخلي واعتقدت بأنّ كلّ شيء قد انتهى، وهذا المساء المشئوم لن يهدأ أبدًا، وظلت أوصالي ترتجف حتى الموت، بيد أنه كادَ أن يُغمى عليّ، يا رب لا أريد أن أشهدُ المزيد من هذه المناظر، كدتُ أصدّق بأنّ الموتُ هذه المرة سيأخذني، لولا أنّها دخلت!

ذهلت، فقد دخلتْ هي بعد انتهاء العملية فورًا، إنها هي ! زادني ظهورها مرضًا وسرورًا في نفس الوقت ولا أعرف ما السبب !

-"سوسن"؟!

غمغمت، ثمّ أغميَ عليَّ.

★★★

(17)

-أين أنا؟ "غمغمت".

- أنت بخير لا تقلق، في قصري أنا.

- إذن أنا في أمان.

قلتُ مطمئنًا.

-بالتأكيد حبيبي.. انكشفَ الخطر عنكَ، حمدًا لله على سلامتك حبيبي.

- أين هم الآن؟!

- تمّت إبادة القاتلين.. وتم إعادة الأمور إلى طبيعتها في فترة قصيرة.. لا تقلق.

- من أين جاء هؤلاء؟ هل تعرفينهم، إنهم عصابة أليس كذلك؟ أم هم من رجالك؟

- لا تسأل الآن، المهم لم تغب عن عيني لحظة واحدة، حتى آخر لحظة كنتُ أراقبك، ولكننا لم نستطع الدخول بسبب أمور خرجت عن إرادتنا فجأة.

- لو كانت نيتهم قتلي فلماذا احتفظوا بي إلى آخر لحظة؟

- كاد قتلك أن يتم في آخر لحظة، وكانوا يخططون لإلصاق التهمة بضابط عراقي كان في مهمة سرّية لهم، وأرادوا القضاء عليه وعليك وعلى الشبكة التي تم إنشاؤها قبل سنين.
- ولماذا يفعلون هذا برجالهم؟
- تغيير في الخطط، الأمور بدأت تتغير نحو الأسوأ، ويجب عليهم تغيير كلّ شيء حسب الأحداث، الأوضاع تسوء شيئًا فشيئًا.
قلتُ بيأس:
- إذن أنا مهدّد بالقتل سواء غدًا أو في المستقبل.. لقد تقدّم بي العُمر، وجسدي لن يتحمّل أن أرى أحداثًا دموية أخرى.
جلست بجانبي وضمّت رأسي المُثقل بالهموم إلى صدرها بحنان ومالت على أذني لتقول:
-أنت سيّد الشباب ولن أدعك وحدك.. متى تخليتُ عنك حبيبي لأتخلى عنكَ اليوم؟!
قلتُ بتضرع:
-أرجوكِ "سوسن" ساعديني على مغادرة "بغداد".. عندي شاليه كبير في أحد مصايف الشمال أقضي فيه ما تبقّى لي من العمر، سأستقيل من القصر وأنهي كلّ شيء، أرجوكِ.
- لا تقلق حبيبي أريدكَ فقط أن ترتاح ودع الباقي عليَّ، ثق بي.

فقلتُ مستسلمًا في وهنٍ كبير:

-أرجوكِ.

لا أتذكـر حينها الباقي، كنتُ قد استسـلمتُ لنومٍ مفاجئ ولم أشعر بما يدورُ حولي.

★★★

كلمـا كنتُ أخلِدُ إلى النـوم، يُهيمن عليَّ الوجود الآخر، عفريت الذكريـات، صـوت أشـباح الجثـث الـتي قتّلت أمامـي تصيح وتصيـح بشـدّة وكأنها تحترق بنار الشـيطان، تفتـك أصواتها برأسي وأعصابي، يقولون متهكمين:

-لن تأكل وتشـرب بعد الآن بهناء، اسـتوطنّا في رأسـك وعقلك وروحك.

أصحو من الكابوس المخيف، متعرّقا أرتجفُ من الرُعب، بحيث كانت القشعريرة تربطُ بين جسمي الأعلى والسُفلى، تقلصات تلـك الوجوه وهي تُقتل بين أيـدي قاتليها وحملقتهم بجنون فيملـك الموت، ثمّ همودهم إلى الأبد غارقين في الدماء، كلّ هذه الأحداث كانت كفيلة بنشر الرعب في أوصالي..

مرّ عليَّ أسـبوع منذ أن انتقلت إلى الشـاليه الجديد في الشمال، بعـد أن أتممت تصفيـة أعمالي كلّها، واسـتقالتي وبيع أملاكي

في بغـداد، قـررت الاسـتقرار هنا إلى إشـعارٍ آخر، قررت نشـر ذكرياتـي ومحتوى هذا الصندوق في أهم الصحف، لكي أكشـف للعـالم ما هـي الماسـونية ومخططاتها لهدم الشـعوب، يجب أن يعـرف العالم مـا بداخل الصندوق وما كانـوا يخططون، منذ سـقوط الخلافة العثمانية وحتى الآن، ويعرف الشعب العربي أنّ كلّ حاكـم يحكمهـم هو مـن صنع المنظمـة، لا توجد لدينا قـوة لمنعهـم، إنهم يتغلغلون بداخل مؤسسـاتنا، وبعد سـنين سـيتحكمون في عقولنا.. أيـن كُنّا وأين صرنـا ! يجب أن أكتب ليصل كلّ هذا إلى الجيل القادم.

وبالرغـم من وجود اسـم والدي في أغلـب الصفقات وتورطي معـه في تنفيذ مخططاتهم وأننا أصبحنا بدون أن نشـعر أبناء هذه المنظمة الإرهابية، إلا أنني لم أتخلَّ يومًا عن حُلم تخليص الوطن من ظُلم الملوك، ولكن فشلت.

أنا الآن في مكتبي، مازلتُ أكتب مسـتغلًا خروج "سوسن" لأفرغ من كتابتي ونشر الحقيقة في أقرب فرصة ممكنة.

بالرغـم من وجودي في المصيف لفترة أكثر من شـهرين، لكني علـى علـم بكلّ مـا يحصل في بغداد مـن أحـداثٍ مريبة، أحد أصدقائي، وهو برتبة لواء جيش، يُعلِمني بكلّ صغيرة وكبيرة

تحدث في القصر الملكي، حيثُ قال لي بالحرف الواحد:
-إنّ الشعب قد فقد ثقتهُ بالملك، وإنّ عبد الإله مازال يخطط وينفذ خططه من خلال ابن أخته، وإن هذه الحالات بمثابة فتح الباب لأمواج الجنون الهادرة الصاخبة التي تدّفقت لتغمر بغداد وبقية المناطق، وتصيبه في أغنى وأفقر طبقاته، فأمّا الفقراء فكانت لهم الحسرة..

واصل بوجوم:

- الأغنياء، في البلاط الملكي كانوا يتملقون الملك، وأصبح القصر الملكي قِبلةً لهم لرعاية مصالحهم الخاصّة، كانوا يحملون الهدايا إثر الهدايا، سلبت القلوب والجوانح، حتى تاهت العقول وشردت، فسيطر الإسراف والسفه، ونحيت العواقب وتلاشى الزمن، فلم تبقّ إلا الساعة الراهنة، ومضت الدنيا تضيع من التملق والغنى والحياة الباذخة.

"تلك الدنيا، الساحرة الفاتنة، تغوي الرجال بالمال، لا يرتوي لها طمع ولا تكفّ عن طلب، فلم يستأثر بها أحد ولم يزهد فيها أحد".

كانت المملكة تنحدر نحو الضياع، والضباط الأحرار على وشك تنفيذ مخططاتهم لقلب نظام الحُكم، أمّا الملك فهو

غارقٌ بين سـيطرة خاله والحب الجديد مع خطيبته الأميرة" فاضلة إبراهيم سـلطان" التي كانت في لندن آنذاك، حيثُ كان الملك فيصل أكثـر اهتمامًا بلقاء خطيبتـه من صراع الخطب السياسية في اجتماعات الميثاق.
وحدّد يوم 8 يوليو 1958م موعدًا لسفره.

★★★

(18)
1958 تموز – شمال العراق

الظلام يسود مرةً أخرى، يتجسّد في هذا المكان الجديد المليء بالذكريات الرائعة لأيام الشباب، في هذا المكان الذي كان يعجّ برجال الدولة، يسكرون ويعربدون في هذا الشاليه، كلّ شهر حفلة كان يقيمها والدي احتفالًا بمناسباتٍ كان يختلقها لكي لا تفوته الفرصة للتعرّف على زوجات جديدات لرجال دولة، سواء من داخل البلد أو خارجه، شقراوات أو سمراوات أو صفراوات، أمّا الآن فهذا الظلام ينطق بلغة صامتة، حيثُ يحتضن الملائكة والشياطين، والمرهق "أنا، جئتُ لأختفي من ذاتي اللعينة، لأغرق فيها، وإن قَدرَ الخوف عليّ أن ينفذ من مسام الجدران؛ فالنجاة عبث.

نيف وسبعون عامًا مضى عليَّ أن أسبح في بحر هذه الحياة اللزجة تارة والمرحة تارة أخرى، مازلتُ أتذكر أقدامي وهي تأخذني بخطوات مليئة بالخطايا لأتوارى خلف هذا الباب في هذه الغرفة التي أجلسُ بها الآن، ففي الظلمة كنتُ أمارس

الرذيلـة مع إحـدى زوجات رجال الأعمال قبـل ثلاثين عامًا، كنتُ أضحكُ عليها بكلمات التغرير المعسولة لكي تقع في فخّي. أسـتحضرُ اللحظـة الحاسمة عندمـا ألجُ برجولتي بها، في حين كانا الملاك والشـيطان يقفان إلى جانبي، أحدهما لمنعي والآخر يشجعني ويهمس في أذني "تلذّذ فزوجها في الأسفل يكرع الخمر مع أصحابه، هي لك، وكانت الرغبة تهزم الملائكة.

ولكـي تحتدم الصراعـات والمعارك في داخلي فلابد من سـبب قوي لكي أتشجع أكثر، فكانت المرأة ببشرتها الصافية وعينيها السوداويين المكحلتين، وقسماتها الدقيقة مثل البراعم تدفعني أن أطلـق عليها أسـلحة رجولتي لأسـقطها شـهيدة الخيانة في أحضانـي، فـلا بدّ من أنّ رشـاقتها وسـحرها وعذوبة صوتها، كلها أسـباب لدفعـي لأنجز ما تمليه عليّ الشـهوة الوقحة والتي لا تعـرف المُحرمات، ومن يتـزوج الحياة فليحتضن إذن ذريّتها المعطرة بالشبق، وأن أعاني إحساس المُطارد.

وهاأنـذا أغـوص في سـنين عمري وأَسـأل الغوث مـن الرحمن فتنسكب عليَّ خمر الفتن.

★★★

لم أعـد أرى مـن النهار الآن إلا غبـاره، ولا من الليل إلا ظلامه، وكلّمـا مرّت الأيام توقعت عثرة ليسـت في الحُسـبان، وإن رفّت عيني غمغمت: اللهم اجعلهُ خيرًا.

وكلما كنتُ أستنيم إلى مضجعي عقب منتصف الليل، تترامى إلي أصوات الزعيق تمزق السـكون، فتبدأ أجساد الموتى في التجسد، يصحون مـن رقادهم ويتقدمون نحو مسـكني ويحيطون به، هؤلاء الأشـخاص هـم الذين قُتلـوا أمام عيني، فمشـهد مقتل والدتـي أمـام عيـني، والرصاص يفتـك بجسـدها وينخل كلّ شـيء ويحولها إلى أشـلاء، أكادُ أسمع صوتهـا بوضوح، الرصاص المجنون يتصاعد وصـوت طلقاته لا تكاد تتوقف حتى تحصد أجسـادًا أخرى وبلا رحمة، هاهي الأشـباح تتحرك متجسـدة في جثثهـم التي تقطر منهـا الدماء، جثث متعفنة متعطشـة للقتل، سـيهاجمونني بعد قليل دون أن يلتفتوا لشيء، بعضهم ينسـابون كالماء من أعلى السـقف وبعضهم يخترقون الحيطان بأفواهٍ تنزف بشـدّة دماءً بلونٍ أسْـوَد! أيادٍ انبثقت من الفراش تبحـثُ عن جسـدي وتعمل جاهدة في الإمسـاك بـي، يريدون قتلي وتمزيقي، رائحة الدماء والروائح ملأت الغرفة وتناثرت من أفواههم..

فلتخسف الأرض بمن عليها لأنجو..

يعصرونني بقوّة، أياديهم تمزق أحشائي فتندلق لزجة حارّة من بطني، يتناولونها بأيديهم النتنة، يلتقطون ما يحصلون عليه ويلتهمون ما يستطيعون التهامه من أحشائي وأنا أرى ما يحدث وأصرخ بلا جدوى، عضلات وجوههم تموج بسحب حمراء، وأنا أصرخ وأصرخ، الكابوس لا يتركني، أظلّ أصرخ حتى يتهادى من جانبي صوت عذب يسعفني:

-شوقي حبيبي اصحَ، الكابوس بدأ يعاودك مجدّدًا.

أستيقظ بصعوبة الهثُ بشدّة، والعرق يتفّصد من وجهي، أتنفس بصعوبة بالغة:

-لا يريدون أن يتركوني وشأني، إنهم قادمون.

- من هم؟ "سألتني وهي تناولني جرعة من كوب الماء من يدها.

أكرعُ منه حتى النهاية، أعود لوعيي قليلًا، أحاول أن أضبط أنفاسي لأتكلم، حتى غمغمت و عيناي قد تعلّقتا بالنافذة:

- الموتى، إنهم بقرب الشاليه.

★★★

لم أرَ بُدًّا من مكاشفة الأمر و سرّ قلقي وهروبي إلى الشمال إلى شريكة حياتي، كنتُ أنتظر فقط عودتها من بغداد فهي غائبة منذ يومين عني، أريد أن أجلس معها وأكشف لها كلّ شيء، إنها من أنقذتني من أغلب المصائب التي حلّت بي، وما المانع لأكشف لها أمر الصندوق !

لقد كانت تأتيني في كلّ نهاية أسبوع وتملأ عليَّ حياتي فتنسيني بدورها الوحدة ودمارها، فأنا الآن أقبع وراء أربعة جدران أترقب بصبر انطواء آخر ذيول الظلام لكي أستطيع أن أنام، وما إن أرى أول ضياء يتضامن فوق الجدران حتى تسودني الراحة قليلًا وأطمئن إلى عدم هجمات الكوابيس وأنا نائم، والذي غيّر مجرى حياتي، وما إن يشع النور في المكان حتى أذهب إلى السرير لأغرق في النوم، هذه الغرفة الآن باتت تعبق برائحة محزنة، بالرغم من أن الشمس تُرسل أشعتها ولكن بلا جدوى، فهواء هذا الشهر يتموّج في فتور وبلا هدف، وكأنه حزينٌ على القدر القادم إلينا بشؤمه، ليس هناك ما يستحق أن أذكره سوى صمت اليأس العنيد، والرعب المتحدى، والقهر الصلد، حتى بتُّ أتخيل أنّ أوراق الأشجار ورحيق الورود

يسيلُ دمًا، سكتت تغريدات العصافير الآن.. وتلفعت بطيلسان اللامبالاة، كانت غصون الأشـجار تميد من أصوات المارّة، ولكنّ السـكون المفاجـئ يخيم الآن على كلّ مكان، فمـاذا يا ترى حلّ بنا؟ متى ستتردد الأنفاس من جديد وترسل دفئها في البقاع؟

★★★

(19)
الملك
يوليو 1958م .. الأسوَدْ الدامي...

كان الملك فيصل الثاني قد أعدّ نفسه للسفر إلى تركيا، ولكن في 7 يوليو رجاه وزير المالية أن يؤجل سفره إلى يوم 9 يوليو، للتوقيع على قانون الخدمة الإلزامية، وقانون توحيد النقد والبنك المركزي لدول حلف بغداد، فوافق الملك بعد إلحاح، وفي يوم موعد سفره في 8 يوليو أرسل شاه إيران برقية يقول فيها: "إنّ لديه معلومات يريد أن يبلّغها لمجلس دول حلف بغداد، واقترح لقاء رؤساء دول التحالف ورؤساء وزرائهم في اسطنبول يوم 14 حزيران 1958م"، واضطّر الملك إلى تأجيل سفره للمرة الثانية من 9 يوليو إلى 14 يوليو.

★★★

كانت كلّ الأحداث التي حدثت في المنطقة غير مطمئنة، والأوضاع الداخلية لا تتحمل أي بلبلة داخل الجيش بسبب الظروف التي سببها الهجوم البريطاني على مصر وبمعاونة من

فرنسا وإسرائيل، والموضوع أجّج المشاعر منذ دخول إسرائيل في الهجوم.

لا أدري كيف يفكر الإنجليز ! جزيرة صغيرة احتلّت العالم بصبرها ودهائها..

كانت الحكومة المصرية تكسب التأييد لأنها تنفذ سياسة مرغوبة من المصريين وباقي البلاد العربية، ونحن أيضًا لدينا وحدة، حيثُ لاقت وحدتنا مع الأردن تأييدًا من الشباب لأنّها ذكّرتهم بأيام زمان ومطالب العرب الجدّية والصادقة نحو الاستقلال، ولكن الحكومة المصرية العسكرية كانت مندفعة وليس لديها أية خبرة مع الإنجليز.. تصرّفوا بتهور في موضوع التأميم وجاء لهم ببلاء الحرب،، أجّج الغرب ضدهم، عاداهم، وخصوصًا كان الغرب في هذه الفترة قلقًا ومهتمًا بالشيوعية بشكل كبير وانتشارها الذي سيهدد العالم الحر، والعراق أحد البلدان المهمة في المنطقة الذي يجب أن يكون طرفًا في كلّ الاتفاقيات التي توقع لضمان السيطرة على المنطقة.

وكانت الحكومة العراقية تُحّذِر من الاعتقالات أو من ضربة قوية داخل الجيش خشية من ردّ فعلها الذي سيكون لصالح العناصر الطائشة.

بعـد أربعة أيـام، وتحديدًا في الرابع عشـر من شـهر تموز عام 1958م، قام اللواء عبد الكريم قاسم بانقلاب دموي أدّى إلى الإطاحة بالنظام العراقي، أمّا الجنود القوميون بقيادة العقيد عارف فقد أُرسـِلوا من قواعدهم في شـرق بغداد للحشـد ضد التهديدات التي تواجه "الملك حسين" فقاموا بتنفيذ الانقلاب عند تحركهم من العاصمة العراقية، ففرضوا سيطرتهم على محطـة الإذاعـة، والـوزارات الحكوميـة، وأعلنـوا بعدها قيام "الجمهورية العراقية".

بعدها اتجهت القوات العراقية إلى "قصر الرحاب"، حيثُ يقيم الملك فيصل وولي العهد "عبد الإله، خال الملك، الذي كان يبلغ من العمر 45عامًا، فقام الجنود بإطلاق النار عليهما في فناء القصر، ثم قتلوا بقية العائلة المالكة رجالًا ونساءً، حتى أنّ جسد ولي العهد كان يُجر في الشوارع وهو مقطوع الرأس.

وانتهت بذلك حياة صديق "الملك حسين" وابن عمه، وانتهى أي أمل في قيام الوحدة بين الأردن والعراق، وفي ذلك الوقت عقدت الولايات المتحدة وبريطانيا العزم على إيقاف انتشار التمرد، وفي 19 من تموز عقد الملك "حسين" مؤتمرًا صحفيًا

رسميًا في القصر وقال:

-لقد وصلني الآن خبر تأكيد مقتل ابن عمّي وأخي، ورفيق طفولتي، الملك فيصل "ملك العراق"، وجميع العائلة المالكة.

وأضاف الملك بحزنٍ شديد:

-إنّهم آخر قافلة الشهداء.

★★★

(20)
شعب دموي
نوري السعيد

انتهت الملكية في العراق بعد قيام حركة 14 يوليو 1958م، على يد تنظيم الضباط الوطنيين.. ولكن ماذا حدث؟
الحقيقة بدأت تتضح مثل سواد الليل تحت سماء مُلّبدة بالغيوم.
فعندما شرع تنظيم الضباط الأحرار في تنفيذ انقلابهم، كانت القيادة أو اللجنة العليا للضباط قد أعدّت مجموعة خطط اللازمة للتنفيذ، إلا أنها كانت ترفض إعدام أو قتل الملك أو حتى تصفية العائلة الحاكمة، وفضلّت عملاً هادئًا يشابه حركة انقلاب ضباط الأحرار في مصر وترحيلهم للملك فاروق بشكل تدريجي إلى منفاه في إيطاليا، فلم يكن التنظيم متفقًا على إعدام أو تصفية الملك، وكانت هناك آراء حول طريقة التعامل مع الملك بعد الإبقاء على حياته، فبعض من الضباط كانوا يرون في الإبقاء على حياتهم وإظهار الملك

على شاشة التلفاز لإعلان تأييده للثورة، كما فعلوا مع الملك غازي أثناء انقلاب بكر صدقي سنة 1936م.

ولكن مع ذلك، فإن ظرف العراق يختلف عن مصر، باعتباره الملك الرسمي على عرش الدولتين العراقية والهاشمية، والسماح للملك بذلك يعني إطلاق يده لمحاربة الثورة من جوار العراق وربما بمؤازرة بريطانية، وكانت هناك مخاوف من خلال التباحث حول مصير الكبار الثلاثة " فيصل الثاني، عبد الإله، ونوري السعيد ".. وكانت هذه المخاوف أن يفلتوا مع بعض رموز النظام الملكي، ويتمكنوا بعد ذلك من استعادة السلطة، كما حدث في ثورة "رشيد عالي الكيلاني" عام 1941م, وتقرر في الاجتماع اعتقال الشخصيات الثلاثة وإحالتهم للمحاكم أو تصفيتهم، في حال قيام "عبد الإله أو نوري السعيد" بأي عمل معادٍ للحركة.

كان مصير الملك مُعلقًا، حيثُ اقترحت كتلة عبد السلام عارف استشارة بعض السياسيين قبل اتخاذ أي قرار بشأن مصير الملك، والتي تميل إلى الاحتكام إلى القوانين بعيدًا عن القتل العشوائي.. ولكن كتلة عبد الكريم قاسم اتفقوا على ضرورة قتل الملك، وكان عبد الكريم متحمسًا لقتل الثلاثة الكبار.

كانت التوجهات تنادي بعدم قتل الملك ومحاكمته بصور عادلة.

إلاّ أن نذر رياح التغيير العاتية قاربت على الهبوب لتعصف بجميع العائلة المالكة بعاصفة ترابية من عواصف شهر تموز ذات اللهيب التي لا تُبقي ولا تذر.

ولهذا فأنا في رأيي أن عملية التصفية تمت بقرار انفعالي انفرادي من قبل المجموعة المكلّفة بالسيطرة على القصر، وبسبب سوء التفاهم حدث إطلاق نار عفوي من قبل الحرس الملكي، وتم الرد عليها من قبل المهاجمين في الوقت الذي كان فيه الملك وعائلته قد تمّ إخراجهم إلى الحديقة تمهيدًا لنقلهم واعتقالهم ليكونوا تحت تصرف الحكومة الجديدة.

فقد تنبهت الثكنة العسكرية المتاخمة لقصر الرحاب للحدث وخرج بعض الضباط والجنود من غير المشاركين في الحركة، من المعروفين بانتماءاتهم اليسارية الشيوعية من ذوي النزعة الستالينية التي كانت سائدة وقتذاك والمعروفة بسفك الدماء، وفي أيديولوجيتهم تاريخ حافل من إعدام الحكام فور حدوث الثورات البلشفية.

وكانوا لا يلوون على شيء سوى تنفيذ تطلعاتهم المقدّسة بقتل

الملك وعائلتـه، تنفيذًا لمقولة الثورة الحمراء، وقد اسـتفزهم منظـر المصحـف الذي رفعتـه الملكة وهـي تطلب بعـدم قتل الملك، وهـم المعروفون ببعدهم عن التديـن الذي قد يصل إلى اسـتهزائهم بالمشاعر الدينية، وشـاءت الأقدار أن تنجو الأميرة هيام بأعجوبة.

أما "نوري السـعيد" فبعد سماعه للتفاقـم المتلاحق للأحداث بعـد إعـلان الجمهورية، فلـم تمنحهـا الفرصة الوقـت الكافي للمقاومة والهرب.

وحـاول الاختبـاء ليومـين كاملين تمهيـدًا للهـرب ومقاومة النظام، وتنكر في زيّ امرأة ليتمكن من العبور من بين المهاجمين والحشـود الملتفة حولهم، واستقل سيارة إلى منطقة الكاظمية ليلجأ إلى بيت صديقه الحاج "محمود الإسـترابادي"، وهو تاجر كبـير وعميد عائلة "الإسـترابادي"، كما فعلها سـابقًا بعد ثورة 1941م حيثُ لجأ إلى بيت الحاج محمود خلال حركة "رشيد عالـي الكيلاني" التي سـاعدته على الانتقال خـارج بغداد، إلى محافظة العمارة، وانتقل من هناك إلى خارج العراق مع الوصي "عبد الإله" ليتدبروا أمر إسقاط حكومة الثورة يوم ذاك.

ولأنّ القـادة أدركت، بعد جلاء الموقف أمامهم بأن هرب "نوري

السعيد" المعروف بدهائه وحنكته سيسبب لهم مصاعب جمّة، وذلك بسبب أسلوبه واطلاعه على خبايا الأمور، وبأنه سيقنع الإنجليز بالإطاحة بالحكم الجمهوري، فخافوا خوفًا عظيمًا، وتم تحديد مكافأة مالية للقبض على "الباشا نوري السعيد".

فتوالت إعلانات هرب "الباشا" بشكل هستيري من خلال بيانات كانت تذيعها وزارة الداخلية من دار الإذاعة العراقية، مما أثار اهتمام الشارع نحو البحث عن "السعيد" بشكل محموم وتراجيدي.

فأسقطت من يد الهارب كل محاولات الاختباء والهرب، وضيقت عليه الدائرة، وشلّت تحركاته، فقد كان هدفه ألا يختبئ فترة طويلة، بل يهرب خارج العراق لكي يتدبر أمر مقاومة النظام الجديد.

فترك بيت "الإستربادي" متوجهًا نحو بيت الشيخ "محمد العريبي" عضو مجلس النواب في منطقة البتاوين وسط بغداد، والتي كانت تئنّ بالفوضى التي كانت تعجّ بها المنطقة جرّاء سقوط النظام الملكي، وانهيار الدولة، فامتزجت فيها مشاعر الفرح بنجاح الحركة وإعلان الجمهورية بالحزن جراء العنف والقتل العشوائي من قبل الدهماء والغوغائيين والأحزاب التي أخذت

بدورها تمارس القتل المنظم بسحل معارضيها في الشوارع.
وبينما كان "الباشا" في طريقه إلى البتاوين، تعرف عليه أحد الشبان في منطقة الكاظمية، وهو يروم ركوب السيارة، بعد أن انكشفت ملابسه التنكرية، فأبلغ الشاب السلطات بذلك، وذلك بتزويدهم برقم السيارة المنطلقة، كانت زوجة "الإستربادي" برفقته للدلالة، وبعد أن ترجل من السيارة عرفته الأجهزة الأمنية وتمت ملاحقته وما لبث أن تطورت المواجهة إلى اشتباك بالأسلحة الخفيفة، مما أدى إلى إصابة الحاجة "الإستربادي" وأردوها قتيلة في الحال.
حوصر "الباشا"، ووصلتني الأخبار حينها بأنه انتحر بإطلاقه على نفسه رصاصة الرحمة كي لا يعطي فرصة لخصومه للإمساك به وإهانته وتعذيبه كما حصل للأمير "عبد الإله".
كانت بغداد مليئةً شوارعها بالجثث المتفحمة التي كانت ترقد على الأرض، كانت الجثث لرجال العهد الملكي، تم قتلهم ومن ثم إحراقهم في أحداث الثورة، كان أحد الواقفين قد سحب إحدى هذه الجثث بسلك مربوط في معصمها فانقلبت على جنبها.
كدتُ أجنّ من الصور التي شاهدتها، والتي تم التقاطها في هذه

الأجـواء التعيسـة، وكان العراقيون مذهولين وهم يشـاهدون رئيس وزراء العراق السياسي المخضرم والذي على يده تشكّلت العديـد مـن الـوزارات، والرجـل الـذي كان له التأثـير الكبير لسياسة العراق في المحافل الدولية، وهو الآن جثة هامدة ألقيت علـى الأرض، يلبس بنطلـون بيجاما زرقـاء مخططة، صدره وبطنـه عاريـان وقد خـرج جزء من أحشـائه خـارج البطن مغلّفة بالشحم الأصفر.

كان الناس في حالة من الهياج والحماس، حتى برز فجأة أحدهم بمطرقـة حديدية وهوى بها على رأسـه يحاول تهشـيمها، ثم أمسـك شـخص آخر رجله وأخذ يسـحله على ظهـره في اتجاه سـاحة النصر والآخـرون يعاونوه، وبدأ السـحل لجثته بدون رحمة على جانب الشـارع الذي تحوّل إلى فقاعات سائلة بسبب حرارة جو شهر تموز البغدادي.

سـحلوه حتى شارع النصر، ثم وصلت سـيارة جيب عسكرية يسـتقلها ضابـط كبـير مسـلح مع جنـوده، صـرخ في الجموع بالابتعـاد، ثم تقدم من الجثة ليتأكـد منها إذا كانت لـ "نوري السـعيد" أم لا، دقـق النظر إليه، وبعد أن تأكد من شـخصيته، أفـرغ في الجثـة كل رصاصات المخزن وسمح للجماهير بسـحلها

في شـوارع بغداد والناس تركض وراءه في هياج وهسـتيريا، بل والمأساة الأكبر من ذلك، أحد الجماهير بتر أصبع قدمه الصغرى ليحتفظ به كذكرى.

★★★

شـعرتُ بالخـوف يزحف نحـوي، يهتك بـي، أشـباح الأخطار تتراقـص في أركان دنياي الضيقة، هل سـيحيق بي مصير مثل الذي حاق بـ الباشا "نوري السعيد".

كانت بغداد تعيش فظاعة ما بعدها فظاعة، ومأساة حقيقية فلـم يعـووا مـا تفعل الجماهـير الغاضبـة في الشـارع، اقتلعت الأبواب، أمطـرت التراب، طيرت عربات اليد، وتكسـرت نوافذ السيارات، أطاحت بكلّ شـيء، والشيطان كان يراقب كلّ ذلك، وكان يرقص عن بُعد فوق جواد أصيل.

طفح وجه الغاضبين بالرفض والصلابة وفسد الجو أيّما فساد، وأنا كنتُ أسـتمد من يأسي شـجاعة، وكنتُ في صميمي مشفقًا من فقدان الملك، رغم أنه لم يُعالج شيئًا من قضايا الفقر سوى دعايات إعلامية في إصلاحات وهمية لم تسـعفه عندما ثارت الدنيا عليه.

الشعب بدا مثل هبّة من غبار، وجوه مصفرّة,مقلوبة السحنات،

يتطاير من العيون الشـرر، فتجسّد الغيظ مقتًا أسود، وطفرة الكبرياء من وجوه الفقـراء كانت متوثبة بينما الجثث تُحرق وأخرى تُسـحل وتُقطّع، هذا ما كانت عليـه بغداد وهي تودّع الملكية وتستقبل عهد الجمهورية.

خفتُ على نفسـي وخصوصًا بعدما رأيتُ الضباط الأحرار قد نشـروا دورياتهم في كلّ مكان يبحثون عن الشخصيات الأخرى مـن البـلاط الملكـي، وفي كلّ وقت كنـت أتوقع أن يتسـللوا إلى الشاليه ويقتحموا عليّ غرفة النوم ويقتلونني.

زحفـت هـذه الأفـكار مثـل الحشـرات الزاحفـة إلى خيالـي، وتضاءلتُ شيئًا فشيئًا حتى انقلبتُ إلى ذرة من سُخام متطايرة فوق أديم طريق مجهول لا نهاية له.

★★★

هذا هو العراق الآن غارق في بحر الانقلابات والثورات، لا ملامة عليـه إلا إذا ليمـت ريـح أبية لاقتلاع شـجرة خاويـة نخرها السوس.

★★★

في آخـر الأمـر كاشـفتها بالحقيقـة،إذ لم يعد هناك أي سـبب لأخفي عنها سـرّ الصندوق، أخبرتها في مسـاء أحد الأيام بأنني

أخفـي صندوقًا مهمًا في غرفة النـوم، وبالتحديد خلف صورة معلّقـة في الجـدار، حيثُ تكمـن وراءها خزنة صغـيرة تعتمد لفتحها على سـتة أرقام سـرّية,كانت "سوسن" مذهولة ولكنها سألتني بذهول لماذا أفشيتُ لها بسر خطير كهذا؟

ولكن لم أخبرهـا بأمر كتابة مذكراتي، ونيتي في نشـرها، ولمّا حانت سـاعة النوم، اعتذرت هي متعللـة ببعض الأعمال التي تخص الشـركة وعليها بمراجعتها، تركتهـا وصعدتُ إلى غرفة نومي.

دخلـتُ غرفتي، أنرتُ الضوء وأغلقت الباب، اقتربت من المكتب وأخرجـت دفتر المذكـرات لأراجعه بسـرعة، ثـم أرجعته إلى مكانه. دلفت تحت الغطاء لأنام تاركًا هذه الملاحظة في منتصف الدفتر بداية لكتابة فصل جديد.

"ملاحظـة": من هنا سـتبدأ مذكرات هـذا الفصل عن عملاء الماسـونية وعملياتهم في العـراق و"الدولة العثمانية" سـابقًا، الذين قابلهم والدي وعمل معهم لتغيير مسـتقبل المملكة من الأسوأ إلى الأرذل.

حيثُ إنّ هذا الفصل هو كالقشـة التي سـتقصم ظهر البعير لما تحتويه من معلومات خطيرة جدًا.

★★★

(21)
يحدُث الآن

انشقت ابتسامة على ملامح قائدهم مخاطبًا أربعة من فريقه وهم جالسون في صالة البيت:

-وصلنا الاتصال الآن علينا أن نتحرك فورًا.

في وقت قصير كانوا قد وصلوا إلى المكان المطلوب.

كان السكون المخيف يملأ المكان المحيط للشاليه مثل المياه الثقيلة، كان هناك أمر غريب يشي بأنّ شيئًا ما على وشك الحدوث.

أشار قائدهم لأحد الرجال بالتوجه إلى الغرفة الصغيرة للحارس والتخلص منه بسرعة، حيثُ كان يرقد الحاج "عمر" الكردي خادم "الباشا".

طرق القاتل الباب ليخرج الحارس فلم يمهله فرصة ليثب عليه وينحره بلا مقاومة.. لم يتأخر الرجل كثيرًا ليعود.. تمّ بدون صعوبة مهمته الدموية.

كانت عملية سهلة بالنسبة لقاتل احترف مهنته الوحيدة وبلا تردد وخوف.

كان باب الشاليه مفتوحًا، دخل الرجال حاملين مسدساتهم، جاهزين لتنفيذ أمر قتل "ابن الباشا".

★★★

لربما كان ذلك حلمًا سيئًا، كابوسًا زحف من الظلام ودخل إلى الضوء الفاسد في عقله نصف المتيقظ، والأرجح أنه يتخيل أو يهلوس، فإحساسه لا يكذب، أحسّ بأنّ عليه أن ينهض ليتفقدها، فهناك أشياء تحدُث في الطابق الأسفل ووساوسه بدأت تكبر.

اندلق من فراشه، ليثب إلى الخارج، وما إن وصل الممر حتى لاح له المتسللون يدخلون إلى الشاليه مسلحين، أيقن بأنه الكابوس الذي كان يطارده في كلّ وقت، أسرع إلى الغرفة وأخرج مسدسه من تحت وسادته وأسرع إلى الممر، كانوا يفتشون المكان وهو مختبئ وراء الحائط يراقبهم، كان قلقًا على "سوسن" !

قائدهم له شعر مسرّح للخلف كتسريحة راكبي الدراجات، يلبسون زيًا واحدًا، جاكيت وبنطالاً أسود وقميص أبيض، كانوا قد تفرقوا في أنحاء المنزل والصمت يغلفهم.

تجمّـدت يداه مثل الطيور المتحجرة، حدّق بخوف نحو الرجال وكان صوته وهو يحسب عدد المتسللين متفرقًا، مترددًا، غريبًا حتـى لأذنيه، صوته خانه من الخـوف، كان بالإمكان أن يفقد النطق، وجهه يتلوى، ويعتصـر مثل وجه لعبة صغيرة، وكأنّ الأرض قد اختفت تمامًا أسفله.

لاحت منه نظرة إلى السـماء من خلال شُـباكٍ موجود في الممر، رأي السـماء الذي تعمّق ليصبح ظلًا على حدود اللون المخملي الملكي والأسود..

قال أحدهم وهو ينظر إلي الأعلى:

-إنه فوق الآن لنباغته قبل أن يشعر بنا.

رفع "شـوقي" بيك حاجبيه ثم أومضت الفكرة داخل رأسـه، سـوف يباغتهم بإطلاق النار وهم يحاولون صعود السـلالم إلى الطابق الثاني، سـوف يطلق عليهم الرصاص بلا خوف، كانت عيون القتلة ممتلئة كرهًا، تزأر مثل الأشباح الخيالية في الليل، وكانت ازدواجية عقله الآن تسيطر عليه على نحو غريب، إنه يؤمن بأنه سـيموت، إذن ليمت شـجاعًا، وكفى خوفًا من الآن، كان عقله يحثُه على انفصالٍ عن الواقع أشبه بالجنون.

-هيّا. "أمر قائدهم".

تردد في البداية عن إطلاق النار عليهم، تراجع للخلف خطوة، حدّق صوبهم وهم يصعدون السلالم برشاقة، بدا وجهه يتلوّى ويتجعّد من جديد، تلّوت شفتاه بجهد صامت لتتمكنا من قذفهم باللعنة، أخيرا أصدر صوتًا، كان همسًا لغضب متأجج فأطلق النار صوبهم صارخًا:

-الويلُ لكم، سوف أقتلكم.

وما إن أطلق النار عليهم حتى بدا القتلة كمصاصين الدماء تمت إعاقة تقدمهم بصليب.

أحدهم أصابته إحدى الطلقات فوق الشفة العليا تمامًا، طارت أسنانه مثل عُقد قديم متكسر، تبعثر شعره، والدم، ودماغه على الجدار، كما أصيب زملاؤه أيضًا في الساق والكتف، ولكنهم عادوا إلى الصالة وهم يتبادلون إطلاق النار ويحاولون في نفس الوقت الاختباء وحماية أنفسهم، كان "شوقي بيك" يرميهم بلا رحمة وبكلّ شجاعة حتى أصيبت ساقه فتدفق جدول من الدم فوق الأرض وهو يتألم بشدّة.

★★★

(22)
يحدث الآن الساعة 2.00 صباحًا

كان وجهه ويده مطرزان بالدّم تلّوثتا من جرّاء تدفق الدم من ساقه، وكان يضغط على الجرح من الألم بيديه، ثم لا إراديًّا يمسح وجهه من العرق الذي كان ينزل إلى عينيه بغزارة، ملابسه ترصّعت ببُرك من المادة الدبقة، كاد اليأس يسيطر عليه وهو يحاول أن يهرب إلى غرفة نومه، والقتلة يصعدون السلالم بحذر بالغ وكلهم مصابون في مناطق متعددة من الجسم.

كان غارقًا في الخوف من رأسه حتى أصابع قدميه، تمكّن بصعوبة بالغة من شقّ طريقه عبر الممر ليصل إلى الغرفة ويقفل بابها، استند على الباب بظهره وهو يلهث من التعب والوجع.

النجاة والأمل تضاءلا الآن، بدؤوا بمحاولة كسر الباب، ومن شدّة الضرب والركل على الباب هوى على الأرض، وبدأ الباب يستجيب لركلاتهم ويتصدع من شدّة الضربات التي طالته،

لقد بدأ ظهور أول علامات اليأس كشعاع رمادي باهت للموت بسبر الظلمة على حياته، نظر نحو الباب ثم أطلق عدّة أعيرة نارية كثيفة من مسدسه أسكتت الضرب على الباب فجأة، وسمع صوت تساقط الجثث على الأرض.

كان الصمت هو الحاضر في المشهد، ولم يمر وقتٌ طويل حتى رُكلَ الباب بقوة، فلاح القائد شاهرًا مسدسه بينما فريقه قد تحولوا إلى جثث هامدة لا تتحرك على الأرض. ابتسم قائلًا:

-لاتفيدك المقاومة، خسرتُ رجالي بسببك وانتهت إطلاقاتك وحان دورك أيها العجوز.

تقدم بخطوات سريعة نحو الضحية وركل بشدّة قدمه المُصابة، ومزّق بذلك الانقباض العضلي في جرحه وفتحهُ أكثر، غارسًا بضربته الكثير من الألم المرتجف من جانبه، هتف القاتل:

-أعرف أين الصندوق، لا داعي لاستجوابك.

فوجيء "شوقي" بما قاله الرجل، أراد أن ينهض في اتجاه المكتب ولكنه ترّنح وسقط، فجثا عليه القاتل بركبتيه، ثم وضع على رأسه المسدس مغمغمًا بسرور:

-لن تفلت أيُّها اللعين.

ثم أكمل:

-ليس قبل أن أعذّبكَ قبل الموت.

ثم ضربه على رأسه بقوة بالمسدس، تأوه "شوقي" ولكنه لم يستسلم، ركل القاتل بقدمه فأوقعه أرضًا فطار المسدس من يده، ثم قام "البيك" مسرعًا وهو يعرج صوب السرير ليُخرج من تحت الفراش سيفًا حادًا وقبل أن يتلقف القاتل المسدس من على الأرض عاجله شوقي بضربة على فخذه الأيمن وشّقه على الفور فانفجرت الدماء كالنافورة.

نهض القاتل وكان المسدس على بُعد يسير منه فالتقطه على الفور وصوبه نحو الضحية، انطلقت الرصاصة الأولى من فوق رأسه، أمّا الثانية فأصابته أسفل عظم الترقوة تمامًا، فقال القاتل وهو يتجرّع الألم:

-من كان يظن أن العجوز لديه هذا المقدار العظيم من الدم ليصمد كثيرًا؟!

ثم وثب واقفًا واتجه نحو ضحيته وأخذ السيف من يده بسرعة احترافية.. رفع السيف هاتفًا:

-سأجعل أحشاءك تتطاير أمام عينيك وتموت من الهلع.

ثمّ وجّه ضربة بالسيف إلى بطن "شوقي" فشقّهُ حتى تناثرت أحشاؤه وسقطَ على الأرض، تحوّل عنه بسرعة واتجه وهو

يترنح من الجروح والألم نحو الصورة المعلّقة على الجدار، انتزعها بقوة ورماها كيفما اتفق على الأرض، ثم مُعتمدًا على ذاكرته، أدار القرص حسب الرقم السرّي وفتحه، فوقع بصره على صندوق فخم متوسط الحجم، أخرجه بسرعة ثم تأبطهُ وخرجَ مسرعًا من الغرفة، لم يأبه بالجثث الملقاة أمامه، تجاهل كل شيء ونزل عبر السلالم للخروج بسرعة من الشاليه والانتهاء من مهمته.

★★★

نهض "شوقي ببطء شديد، حاملاً أمعاءهُ في الداخل، يتألم بشدّة وكأنّ أحدهم يشعل النار في أحشائه، مشى ببطء نحو النافذة بعد أن سمع صوت محرك سيارة في الخارج تروم أن تغادر، كان متقوّس الظهر، وإحدى يديه وسط جذعه، كانت حلقة من أمعائه هربت بين الأصابع فدفعها ليعيدها إلى داخل بطنه، وصل إلى النافذة فزادته المفاجأة ألمًا على ألم!

انتبهت"سوسن" إليه من مقعدها الأمامي جنب السائق، رأته يتشبث بالنافذة ليرى شيئًا وهو يلهث من الوجع، وكان

الصندوق في يدها وهي تبتسم بمكر وانتصار، والقاتل يقبع جالسًا خلفها يتألم هو الآخر من جراحه.

لوّحت إليه بأصابعها تودعه، فكوّر قبضته وضرب الجدار مرارًا وهو يتألم ويبكي من الخيانة، تابع بنظره السيارة وهي تبتعد.

منحنيًا كعجوز بلغ مئة سنة، يتوجّع من الغدر أكثر من الجروح التي أصابته، كرجل في إعصار عكسي، شقّ طريقه نحو الباب المكسور، إصابته الشديدة، أمعاؤه البائسة، والتي تنتأ للخارج، وكانت تنسحبُ خلفه على الأرض، وكان كلّ ما في داخله يحترق.

تدّفقت الدماء بانسياب من فمه قبل أن يسقط على الأرض، تشتت أمعاؤه، فالتقطت القذارة، وبكى وانتحب على تلك الخيانة، الذكريات بدأت تومضُ أمامه كالبرق، ويستعرض ما فات من أحداثٍ متفرقة، مع والده، لحظة اغتيال والدته، لحظة قتل "عيزرا" وصديقته، لحظة اقتحام "سوسن" لإنقاذه مع رجالها في الشقة.. و.. لحظة خيانتها.

بـدا العـالم مصرفًا للألـوان، والأشـياء تتحوّل حولـه إلى لون رمادي شاحب متحول.

هـو يحتضـر، كأنّ عقله يلتفـت للداخل، يأكل نفسـه في آخر ثواني الانفعالات الأخيرة.

★★★

أرخى ذراعيه...

فانطفأت فيه شمعة الحياة بالكامل...

دخلَ شبح إلى الداخل بهدوء، داسَ ببرود على الجثث، لا يكترث بتكسـر الأصابع تحت كعـب حذائه، وعندما تحـرك أحدهم يطلـب النجدة بصوتٍ ضعيف، أتتهُ طلقة الرحمة في منتصف جبينـه ورقد بين جثـث زملائه، أخفى الشـبح مسدسـهُ في جرابٍ تحت إبطه وعبر بهدوء جثة "شوقي"، فتقدّم إلى المكتب وفتح دُرجه الخشبي.. فأخرج دفتر المذكرات...

نقر على الغلاف بأصابعه وتمتم: هذا ما أريد.

تصفحهُ بسرعة ثم أغلق الدفتر وخرج بهدوء.

كانـت الجثث قابعـة في أماكنها تنتظر مـن يرفعها، وكان "ابن

الباشـا" قد أسـلم روحـه، غارقًـا في دمائه التي تخثّـرت، وأمّا البيت فقد كان خاليًا من الحركة واللون والصوت، وعند بزوغ الفجر كان الشـاليه يعجّ برجال الشرطة والعسكريين للتحقق في الجريمة.

★★★

هنيئًـا لكلِّ من كان يـروم أن يكون له الأمـان خليله، والهدوء قرينه، والحب نديمه، والليل الطويل رفيقه.

★★★

المؤلف في سطور

- ولد في بغداد 1974 م
- بدأ في الكتابة في سن مبكرة وهو في سن 15 عاما من عمره
- كتب في منتصف الثمانينات رغم صغر سنه عدد من المسرحيات و3 روايات تتحدث عن مصر القديمة متأثرا بشخصية نجيب محفوظ كما ألف رواية بوليسية.
- شارك ومثل في عدة ادوار في مسرحيات عراقية في الثمانينات
-دخل معهد إعداد المعلمين وفقد والده ومن ثم جاءت حرب الخليج الأولى ليؤثر سلبا على حياته
- دخل الإعلام والتوجيه السياسي عام 1992 م وعمل في مجلات كما كتب عدة مقالات مهمة كانت سبب خروجه من العراق عام 1999م رغم إنه كان مرشحا لمعهد ضباط الأمن العالي آنذاك
- كتب في الغربة عدة مقالات للصحف المهمة
- أكمل دراسته في لندن وعمل كصحفي ومن ثم بدأ بنشر

خواطره الخاصة بناءا على طلب بعض دور النشر الإلكترونية ثم بدأ بكتابة أول رواية له "المصير"مذكرات مواطن عراقي

- له أول ديوان يتألف من 16 رواية شعرية بالشعر العربي المقفى وهو ديوان "رسالة لرجل في الأربعين

- حصل على عدة جوائز من مختلف الجهات الأدبية التي تهتم بالأدب وله عدة لقاءات صحفية وتلفزيونية

- يجيد التكلم 6 لغات

أعمال سابقة

1- الحريق والرماد (خواطر)
2- الصرخة (رواية)
3- نسرين أبجدية العشق (ديوان شعر)
4- نسرين (مجموعة قصصية)
5- حواء (خواطر)
6- عصر النساء (خواطر)
7- قارئة الفنجان (خواطر)
8- كهرمانة والغزاة
9- من يوميات رجل حزين (خواطر)
10- قصائد ثائرة (شعر)
11- نساء على كفّ الرب (شعر)
12- نسرينيات (شعر)
13- اسطنبول (خواطر)
14- اعترافات الحب (خواطر)
15- المجزرة (خواطر)

16- **الوهم (خواطر)**
17- **بغداد (ديوان شعر وخواطر)**
18- **تأملات (خواطر)**
19- **بيت القاضي**